لماذا تأخر المسلمون
ولماذا تقدم غيرهم؟

ارسلان







لماذا تأخر المسلمون

ولماذا تقدم غيرهم ؟

من قلم امير البيان

الامير شكيب ارسلان

وهو جواب اقتراح كتب لمجلة المنار خاصة

الطبعه الاولى في سنة ١٣٤٩

مطبعة المنار بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (سورة الرعد ١٣: ١٢))

ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم (سورة الانفال ٨: ٥٤)

إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد (سورة المؤمن ٤٠: ٥١) انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون (سورة الحجرات ٤٩: ١٥)

كتب إلي تلميذي المرشد الشيخ محمد بسيوني عمران امام مهراجا جزيرة سمبس برنيو (جاوه) كتابا يقترح فيه على أخينا المجاهد أمير البيان أن يكتب للمنار مقالا بقلمه السيال في أسباب ضعف المسلمين في هذا العصر وأسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة. وقال في كتاب آخر انه قرأ ما كتبناه في المنار وتفسيره من بيان الاسباب في الامرين وما كتبه الاستاذ الامام في مقالات (الاسلام والنصرانية.

٦٢

مع العلم والمدنية) في الموضوع ، وانما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان بقلمه المؤثر المعبر عن معارفه الواسعة ، وآرائه الناضجة ، لتجديد التأثير في أنفس المسلمين بما يناسب حالهم الآن ، لتنبيه غافلهم ، وتعليم جاهلهم ، وكبت خاملهم ، وتنشيط عاملهم . وبنى الاقتراح على الاسئلة الآتية التي صارت مثار شبهة على الدين عند غير علمائه، فهو يعلم مما سمعه من دروسنا في مدرسة الدعوة والارشاد ومما كتبناه مراراً في المنار والتفسير أن كتاب الله تعالى حجة على أدعياء الاسلام والايمان، وليسوا هم حجة عليه

افترصت[1] هذا الاقتراح لحمل أخي ووليي الامير شكيب على كتابة شيء مثل هذا للمنار، وأنا الذي أنصح له دائماً بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب وللاصدقاء وغيرهم، فارسلت اليه كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلي، فارجأ الجواب عنه لكثرة الشواغل إلي أن عاد من رحلته الاخيرة إلى أسبانية وقد أثرت في نفسه مشاهد حضارة قومنا العرب في الاندلس والمغرب الاقصى، وشاهد تأثير محاولة فرنسة تنصير شعب البربر في المغرب تمهيداً لتنصير عرب افريقية المرزوئين باستعبادها لهم ، كما فعلت أسبانية في سلفهم في الاندلس — فكتب الجواب منفعلا بهذه المؤثرات ، فكان آية من آيات بلاغته ، وحجة من حجج حكمته ، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته، وانبجس من معين خبرته ، فسال من أنبوب يراعته ، جزاه الله خير ما جزى المجاهدين الصادقين

محمد رشيد رضا

(١) لعله اقترحت

كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الاستاذ المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار نفعني الله والمسلمين بوجوده العزيز آمين

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فان من قرأ ما كتبه في المنار وفي الجرائد العربية العلامة السياسي الكبير أمير البيان ، الامير شكيب أرسلان ، من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع ، عرف انه من أكبر كتاب المسلمين المدافعين عن الاسلام ، وانه أقوى ضلع للمنار وصاحبه في خدمة الاسلام والمسلمين ، واني أرجو من الله تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف في خير وعافية – كما أرجو من مولاي الاستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الامير الكاتب الكبير أن يتفضل علي بالجواب عن أسئلتي الآتية وهي :

(١) ما أسباب ماصار اليه المسلمون (ولاسيما نحن مسلمو جاوة وملايو) من الضعف والانحطاط في الامور الدنيوية والدينية معاً ، وصرنا أذلاء لاحول لنا ولا قوة ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) فأين عزة المؤمنين الآن ؟ وهل يصح

لمؤمن ان يدعي أنه عزيز وإن كان ذليلا مهانا ليس عنده شيء من أسباب العزة إلا لأن الله تعالى قال (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

(٢) ما الأسباب التي ارتقى بها الاوربيون والامريكانيون واليابانيون ارتقاء هائلا ؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في أسبابه مع المحافظة على دينهم (الاسلام) أم لا ؟

هذا والمرجو من فضل الامير أن يبسط الجواب في المنار عن هذه الاسئلة وله وللاستاذ صاحب المنار من الله الاجر الجزيل .

محمد بسيونى عمران

سنبس بورنيو الغربية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨

هذا نص كتاب السائل ويتلوه جواب الامير ، وقد وضعنا له بعض العناوين ، لأنها كمحطات الطريق للسالكين ، وعلقنا عليه قليلا من الحواشي المفيدة للقارئين ، كما فعلنا ذلك في كتاب الاسلام والنصرانية لشيخنا الاستاذ الامام (رح)

جواب الامير شكيب أرسلان

ان الانحطاط والضعف اللذين عليها المسلمون شيء عام لهم في المشارق والمغارب لم ينحصر في جاوة وملايو ، ولا في مكان آخر ، وانما هو متفاوت في دركاته ، فمنـه ماهو شديد العمق ، ومنه ما هو قريب الغور ، ومنه ما هو عظيم الخطر ، ومنه ماهو أقل خطراً

وبالاجمال حالة المسلمين الحاضرة ولا سيما في القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للمسيح ، لا ترضي أشد الناس تحمساً بالاسـلام وفرحا بحزبه ، فضلا عن غير الأحمسي من أهله

ان حالتهم الحاضرة لا ترضي لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا ، ولا من جهة المادة ولا من المعنى . وإنك لتجد المسلمين في البلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين عن هؤلاء الاغيار لا يسامتونهم في شيء إلا ماندر ، ولم أعلم من المسلمين من ساكنهم أمم أخرى في هذا العصر ولم يكونوا متأخرين عنهم إلا بعض أقوام منهم ، وذلك كمسلمي بوسنه مثلا فانهم ليسوا في سويٍ مادي ولا معنوي أدنى من سوي النصارى الكاثوليكيين ، أو النصارى الارثوذكسيين الذين يحيطون بهم ، بل هم أعلا مستوى من الفريقين ، وككثير من مسلمي الروسية

الذين ليس المسيحيون الذين يجاورونهم أرقى منهم . ولقد كان المسلمون في أذربيجان قبل الحرب أرقى من الطوائف المسيحية التي تساكنهم، ولا خلاف في أن مسلمي الصين إجمالا على تأخرهم هم أرقى من الصينيين البوذيين ، هـذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة ، وفيما عدا هذه الاماكن نجد تأخر المسلمين عن مسامتة جيرانهم عاما مع تفاوت في دركات التأخر

ويقال ان العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الاجناس التي تساكنهم حتى من الانكليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد ، ولا أعلم مبلغ هـذا الخبر من الصحـة ، ولـكنه على فرض صحته ليس بشيء يقدم أو يؤخر في ميزانية المسلمين العامة

ولا انكار أن في العالم الاسلامي حركة شديدة ، ومخاضاً عظيما شاملا للامور المـادية والمعنوية ، ويقظة جديرة بالاعجاب ، قد انتبه لهـا الاوروبيون وقدروها قدرها ، ومنهم من هو متوجس خيفة مغبتها ، لا يخفى هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم ، الا أن هذه الحركة الى الامام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم الى درجة يساوون بها أمة من الامم الاوروبية او الاميركية او اليابان

فبعد أن تقرر هذا وجب أن نبحث في الاسباب التي أوجدت هذا

التقهقر في العالم الاسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم ، وهو السيد المرهوب المطاع بين الامم شرقا وغربا ، فقبل أن نبحث في أسباب الانحطاط يجب أن نبحث في أسباب الارتقاء فنقول :

أسباب ارتقاء المسلمين الماضي

ان أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها الى الديانة الاسلامية التي كانت ظهرت جديداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهدايتها من الفرقة الى الوحدة ، ومن الجاهلية الى المدنية ، ومن القسوة الى الرحمة ، ومن عبادة الاصنام الى عبادة الواحد الاحد ، وتبدلوا بأرواحهم الاولى أرواحا جديدة ، صيرتهم الى ما صاروا اليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الارض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم منذ اواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي (رض) لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف

على أن تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن أو ثلثي قرن برغم الحروب التي تسببت بها مشاقة معاوية لعلي والحروب التي وقعت بين بني أمية وابن الزبير قد أدهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين ، وحيرت الفاتحين الكبار ، وأذهلت نابليون بونابرت أعظمهم ، وله تصريح في ذلك

فالقرآن أنشأ اذاً العرب نشأة مستانفة وأخرجهم من جزيرتهم والسيف في احدى اليدين والكتاب في الاخرى يفتحون ويسودون ويتمكنون في الارض

ولا عبرة بما يقال في شأن العرب قبل الاسلام، ومايروى من فتوحات لهم، وما ينوه به من أخلاق عظام في الجاهلية ، فهذه قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة ، ولاشك في مدنية العرب القديمة وانها من اقدم مدنيات العالم، ومما يرجح أن الكتابة قد بدأت عندهم ، ولكن دائرة تلك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها . وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء في ارضهم، وأذلهم الاجانب في عقر دارهم، كالفرس في اليمن وعمان وفي الحيرة، وكالحبشة في اليمن، وكالروم في اطراف الحجاز ومشارف الشام . والحقيقة انهم لم يستقلوا استقلالا حقيقيا الا بالاسلام، ولم تعرفهم الامم البعيدة وتخنع لهم وتتحدث بصولتهم، ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي احلهم في الصف الاول من الامم الفاتحة الا بمحمد صلى الله عليه وسلم

فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا ، وسادوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرقي يجب علينا أن نبحث عنه وننشده ، ونحفي المسئلة ونمعن في النشد ان : هل هو باق في العرب وهم قد تأخروا

برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ؟ أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ، ولم يبق من الايمان الا اسمه ، ومن الاسلام الا رسمه ، ومن القرآن الا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه ، الى غير ذلك مما كان في صدر الملة ؟

فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم

اذا فحصنا عن ذلك وجدنا ان السبب الذي به استقام هذا الامر قد أصبح مفقوداً بلا نزاع وان كان بقي منه شيء فكباقي الوشم في ظاهر اليد . فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول: أين عزة المؤمنين ؟ من قوله تعالى (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) ولو كان الله قد قال (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) بمعنى انه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى انهم يعلنون كونهم مسلمين ، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر . ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا ، فالله غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير ، وانما المسلمون هم الذين تغيروا ، والله تعالى أنذر بهذا فقال (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله مابهم ، وأن لا يبدلهم الذل والضعة ، من ذلك العز وتلك الرفعة ، بل

كان ذلك منافياً للعدل الالهي . ولله عز وجل هو العدل المحض .

كيف ترى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها ، وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقوم بها آباؤها ؟ وذلك يكون مخالفا للحكمة الالهية ، والله هو العزيز الحكيم . ما قولك في عزة بدون استحقاق ، وفي غلة بدون حرث ولا زرع ، وفي فوز بدون سعي ولا كسب ، وفي تأييد بدون أدنى سبب يوجب التأييد ؟ لا جرم ان هذا مما يغري الناس بالكسل ويحول بينهم وبين العمل ، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها ، ومما يستوي به الحق والباطل ، والضار والنافع ، وحاشا لله أن يفعل ذلك . ولو أيد الله مخلوقا بدون عمل لأيد من دون عمل محمداً رسوله ولم يحوجه الى القتال والنزال والنضال ، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول الى الغاية . وتصور أمة لله عندها مائة وهي تؤدي من المائة خمسة فقط ، أتعد نفسها قد أدت ما عليها وتطمع في أن يكافئها الله كما كان يكافيء أجدادها الذين كانوا يؤدون المائة مائة ، وان قصروا عن المائة أدوا بالاقل تسعين أو ثمانين ؟ كلا . هذا مخالف لما وعد الله على رسله ومخالف للعقل والمنطق ، وليس هذا هو الشرط الذي شرطه الله على المؤمنين ، وليس هذا هو البيع الذي يستبشر به المؤمنون .

قال الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون ، وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم) فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله ؟ وأين حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت لاحراز الشهادة وكثيراً ما كانوا ينشدون الموت ولا يجدونه ؟ وكان فارسهم يكر وهو يقول : اني لأشم ريح الجنة ، ثم لايزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى اذا استشهد قال هذا يوم الفرح ، واذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد الى قومه حزينا

المقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التي كانت عند آبائهم ، وقد تخلق بها أعداء الاسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها ، فتجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقا ، وتتلقى الاسنة والحراب عناقا ، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس وتضحيتهم للنفوس في الحرب العامة فوق تصور عقول البشر ، كما يعلم ذلك كل أحد ، فالالمان فقدوا نحو مليوني قتيل ، والفرنسيون فقدوا مليونا وأربعمائة ألف قتيل ، والانكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل ، والطليان فقدوا أربعمائة وستين ألف قتيل ، والروس

هلك منهم ما يفوق الاحصاء، وهلم جرا. هـذا من جهة النفوس، وانكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيه) وفرنسة بذلت نحو مليارين، وألمانية أنفقت ثلاثة، وايطالية أنفقت خمسمائة مليون، والروسية أنفقت ماأوقع فيها المجاعة التي آلت الى الثورة ثم الى البلشفة وهلم جرا.

فليقل لي قائل: أية أمة مسلمة اليوم تقدم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وانفاق الاموال بدون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب لماذا آتاهم الله هذه المنعة والعظمة والثروة وحرم المسلمين اليوم أقل جزء منها؟

وقد يقال: ان المسلمين فقراء ليس عندهم هـذه الاموال لينفقوا هذا الانفاق كله. فنجيب بأننا نوزع هذه النفقات على الاوربيين بنسبة رأس المال ولا نكلف المسلمين إلا الانفاق مثل الاوربيين على هذه النسبة. فهل تسخو الامم الاسلامية الحاضرة بما تسخو الامم الاوربية التي منهامن قدأنفقت في الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها؟

الجواب: لا. ليس في المسلمين اليوم من يفعل ذلك لا افراداً ولا أقواما

وقد يقال: ان الامة التركية وهي أمةمسلمة قد أنفقت كل ماتقدر

عليه في حرب اليونان ولم تقصر عن شأو الاوربيين في المفاداة بالانفس والنفائس

والجواب : نعم. قد كان ذلك . ومن اترك من بذل ثلث ثروته ومنهم من بذل نصف ثروته في هذه الحرب ، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وفازوا، وحرروا أنفسهم واستقلوا ، وارتفعوا بعدان كانوا هووا ،وعزوا بعد ان كانوا ذلوا . اذاً الامم الاسلامية اذا ائتمرت في المفاداة بما أمرها به كتابها كما كان يفعله آباؤها ، أو اقتدت على الاقل بما هو دأب الاوربيين اليوم من بذل النفوس والنفائس في سبيل حفظ بيضتها ، وذود المعتدين عنها ،لم تقطف من ثمرات التضحية إلا مثل ماقطفه غيرها . وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسسها سوء .

ولكن الامم الاسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولاتضحية، ولابيع أنفس ولامسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمال، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر [1] فان

---

(١) المنار : يراجع تفصيل هذه المسألة في أجزاء تفسير المنار تجده بدلالة الفهارس في مواضع من اكثرها، منها ١٣ موضعا في الجزء الرابع منه و ٧مواضع في الجزء الثاني، وآخرها في آخر الجزء التاسع ولها مزيد في الجزء العاشر الذي سيصدر قريبا

الله سبحانه يقول (ولينصرن الله من ينصره) ويقول (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

ومن المعلوم أن الله تعالى غير محتاج إلى نصرة أحد ، وانما يريد بنصرته تعالى اطاعة أوامره واجتناب نواهيه . ولكن المسلمين أهملوا جميع ماأمرهم به كتابهم (في ذلك) او أكثره ، واعتمدوا في استحقاق النصرة على كونهم مسلمين موحدين ، وظنوا أن هذا يغنيهم عن الجهاد بالانفس والاموال . ومنهم من اعتمد على الدعاء والابتهال لرب العزة لأنه يجده أيسر عليه من القتل والبذل . ولو كان مجرد الدعاء يغني عن الجهاد لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الامة فانهم الطبقة التي هي أولى بان يسمع الله دعاءها . ولو كانت الآمال تبلغ بالادعية والاذكار ، دون الاعمال والآثار ، لانتقضت سنن الكون ، وبطل التشريع ، ولم يقل الله تعالى (وأن ليس للانسان إلا ماسعى) ولم يقل (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله) ولم يقل للمعتذرين عن القتال (لاتعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله) الآية ولم يقل (إني لاأضيع عمل عامل منكم)

لقد ظن كثير من المسلمين أنهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام ، وكل مالا يكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من

الله . وليس الامر كذلك فان عزائم الاسلام لاتنحصر في الصلاة والصيام ، ولا في الدعاء والاستغفار ، وكيف يقبل الله الدعاء ممن قعدوا وتخلفوا ، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبذلوا [١]

اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده

يقولون : ليس عند المسلمين ما عند الافرنج من الثروة والسعة لينفقوا في أعمال الخير وفي مساعدة بعضهم بعضا . فنقول لمن يحتج بهذه الحجة : اننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رءوس أموالهم كما تقدم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال . فهل المسلمون فاعلون ؟

اننا نراهم قد محوا رسوم الاوقاف والمؤسسات الخيرية التي تركها آباؤهم ، فضلا عن كونهم لايتبرعون باموالهم الخاصة ولا يجرون مع

(١) يظهر أن الامير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بان أكثرهم تركها وهي ركن الاسلام الدنيوي المادي ، والصلاة ركنه الروحي ، وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الاسلام أهم أركانها ـ الزكاة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ـ وقد وصف الله المؤمنين الصادقين ، بالجهاد باموالهم وأنفسهم فقدم ذكر المال وقال في سياق آيات القتال (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أي بعدم الانفاق وقد قاتل الصحابة (رض) من منع الزكاة ولم يعتدوا باسلامهم بدونها

الاوربيين في ميدان من جهة التبرع لاجل المشروعات العامة ، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الاوربيين في البسطة والقوة والسلطان وهم مقصرون عنهم بمراحل في الايثار والتضحية ؟ فان العمل لاجل السلطان في الارض ، أشبه بالحرث في الارض ، فبقدر ماتشتغل فيها هي تعطيك . وإن قصرت في العمل قصرت هي في الثمر.
والمسلمون يريدون سلطانا يشبه سلطان الاوربيين بدون إيثار ولا بذل ، ولا فقد شيء من لذائذهم ، وينسون أن الله تعالى يقول (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات وبشر الصابرين)

وقد يقولون : اننا جربنا البذل والتضحية ، وابتلينا بالنقص من الاموال والانفس والثمرات وصبرنا ولم يفدنا ذلك شيئا ، وبقي الاوربيون مسلطين علينا . اني أنقل هذا القول عن بعضهم لاني قد سمعته كثيراً .

والجواب : هل يقدرون أن يقولوا لنا إن مايدعونه من البذل والتضحية يشبه شيئا مما يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل ؟ أو إنه اذا نسب اليه يكون نسبته نسبة الواحد إلى المائة ؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسئلة فلسطين : حدثت وقائع دموية

بين العرب واليهود في فلسطين فأصيب بها أناس من الفريقين .
فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يساعدون المصابين من يهود فلسطين
وأراد العالم الاسلامي أن يساعد عرب فلسطين كما هو طبيعي ، فبلغت
تبرعات اليهود لابناء ملتهم من فلسطين مليون جنيه ، وبلغت تبرعات
المسلمين كلها ١٣ ألف جنيه أي نحو جزء من مائة

فسيقولون : ان المسلمين لايملكون مثل ثروة اليهود . ونعود
فنجيبهم . نرضى منهم بان ينفقوا في مساعدة ملتهم على قدر اليهود
والافرنج بالنسبة الى رءوس أموالهم ، ولا نطالب منهم الفقراء الذين
لايملكون مايزيد على كفاية عائلاتهم

قال الله تعالى (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين
لايجدون ماينفقون حرج اذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل)
ثم قال تعالى (انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا
بان يكونوا مع الخوالف) . ونجيب أيضا : انه وان كان اليهود أغنى
بالاموال من المسلمين فالمسلمون أكثر جداً بالعدد ، لان اليهود عشرون
مليونا ، والمسلمين نحواً من ثلاثمائة وخمسين مليونا . فلو ان كلا من
المسلمين تبرع لفلسطين بقرش واحد — وهو الذي لايعجز عنه أحد
في العالم مهما اشتد فقره — لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف

فلنترك تسعة أعشار المسلمين ونفرض هذه الاعانة لفلسطين على عشر واحد منهم أي على ٣٥ مليون نسمة لاغير . وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نجدهم حول فلسطين في لمحة بصر . فان مسلمي مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم ٣٥ مليونا . ولنتقاض من هؤلاء أداء قرش واحد عن كل جمجمة ، فماذا يجتمع لنا من ذلك ؟ الجواب : يجتمع ثلاثمائة وخمسون الف جنيه

فالمسلمون قد تبرعوا عن هذه الاعداد كلها بثلاثة عشر الف جنيه أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمة من عشر عددهم أهذا ما تريدون أن تسموه « تضحية » ؟

أو بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ؟

او هذه درجة نجدتكم لاخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الاقصى الذي هو « ثالث الحرمين وأول القبلتين ؟ » أفلم يقل الله تعالى (انما المؤمنون اخوة) أفهذه نجدة الاخ لاخيه ؟

يقولون لماذا سادت الامة الانكليزية هذه السيادة كلها في العالم ؟ نجيبهم : انها سادت بالاخلاق وبالمبادىء . حدثني رجل ثقة انه يعرف انكليزياً ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه أن يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل انكليزي في البلدة التي هم فيها . فجاءه

الخادم مرة بجدول حساب وفَّر عليه به ٢٠ جنيها في مدة شهر . فسأله الانكليزي : كيف أمكنك هذا التوفير ؟ فقال الخادم : تركنا دكان الانكليزي الذي كنا نشتري منه وصرنا نشتري من دكان أحد الاهالي العرب . فقال له الانكليزي : ارجع الى دكان الانكليزي الذي كنا نشتري منه . فقال الخادم : او لو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيها زيادة ؟ قال الانكليزي : ولو كان يستلزم انفاق ٢٠ جنيها زيادة . وسمعت ان كثيرين من الانكليز الذين في الاقطار لايشترون شيئا ذا قيمة الا من بلادهم ويرسلون الى لندرة فيوصون على كل ما يحتاجون اليه حتى لا يذهب مالهم الى الخارج . أفنقيس هذا باعمال المسلمين الذين مهما أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم أو أوطانهم وعلموا انهم يقدرون أن يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش اذا أخذوها من الافرنجي تركوا ابن جلدتهم اوملتهم ورجحوا الافرنجي ؟ أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه ؟ حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الاخذ والعطاء مع اليهود من أجل فروق تافهة مؤقتة ونسوا ان الضرر الذي يصيبهم من الاخذ والعطاء معاليهود هو أعظم الف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة

وكنت مرة أشكو الى أحد كبار المصريين اهمال اخواننا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة الذين ان لم تجب عليهم نجدتهم قياما بواجب الاخوة الاسلامية والجوار، وجبت عليهم احتياطا من وراء استقلال مصر واستقبال مصر، لانه كما أن وجود الانكليز في السودان هو تهديد دائم لمصر، فوجود الطليان في برقة هو تهديد دائم لها أيضا. فكان جواب ذلك السيد لي: لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت ايطالية الغارة على طرابلس ولم يستفيدوا شيئا فان إيطالية لم تلبث ان أخذتها

فقلت له: ان المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة هي بدون شك ترضي كل مسلم، بل ترضي كل انسان يقدر قدر الحمية. ولكن المبلغ الذي تبرعوا به يومئذ معلوم وهو ١٥٠ الف جنيه. فهل يطمع المسلمون في أنحاء المعمور أن ينقذوا طرابلس من براثن ايطالية بمائة وخمسين الف جنيه؟ وهل هذه التضحية تقاس في كثير او قليل الى التضحيات التي قامت بها ايطالية بالمال والرجال؟

كانت اعانة مصر في الحرب الطرابلسية ١٥٠ الف جنيه، وأنفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه

فانظر الى ما كان لذلك من النتائج:

(النتيجة الاولى) وهي أهم شيء : حفظ شرف الاسلام ، وإفهام الاوربيين ان الاسلام لم يمت ، وان المسلمين لا يسلمون بلدانهم بدون حرب ، وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للاسلام ما لا ينكره إلا كل مكابر

(النتيجة الثانية) ان هذا المبلغ الضئيل بالنسبة الى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم . فكانت هذه المقاومة سبباً لتجشم ايطالية المعتدية من المشاق والخسائر ماهو فوق الوصف الى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية

(النتيجة الثالثة) مهما يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب في هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان الى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافا مضاعفة . فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الاهوال مالا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة . وفي واقعة واحدة هي واقعة «الفويهات» على باب بنغازي ثبت فيها ١٥٠ مجاهداً عربياً لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر الى غروب الشمس الى أن انقرضوا جميعا ، إلا أفذاذاً أتي عليهم الليل ، ورجع العدو ولما يموتوا . وبينما كان العرب في حزن عظيم على من فقدوهم في تلك المعركة إذ جاءهم الخبر البرقي من الاستانة عن برقية وردت

اليها سراً من برلين عن برقية رقمية جاءت من سفارة الالمان في رومية بأنه سقط في هذه المعركة ألف وخمسمائة جندي من الطليان ، وأصاب الجنون سبعة من ضباطهم . وهذه وقعة من خمسين وقعة بالاقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشا يفوقهم في العدد عشرين ضعفا وقتلوا نصفه أي قتلوا عشرة أضعافهم — والله تعالى قد قدر لهم في حال القوة أن يغلبوا عشرة أضعافهم وفي حال الضعف أن يغلبوا ضعفيهم فقط كما قال في سورة الانفال (يأأيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين)

(النتيجة الرابعة) انه قد كانت نفقات ايطالية في الحرب الطرابلسية في السنة الاولى منها أي من سنة ١٩١١ الى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه، ويظن انها من عشرين سنة الى اليوم — اذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة — قد بلغت ثلاثمائة مليون جنيه

فهذا كان كله نتيجة تلك الاعانة القليلة والنفقات الضئيلة التي قام بها المسلمون في تلك الحرب ، ولكن المسلمين ينتظرون أن تنهزم ايطالية

الدولة الكبيرة التي أهلها ٤١ مليون نسمة ودخلها السنوي ٢٠٠ مليون جنيه في صدمة واحدة أو في السنة الاولى من الحرب (١) وان لم يتحقق

(١) أي هذا عددها ، وهذا دخلها ، وهذا انفاقها على الحرب .

وأما عصبيتها وضراوتها في سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذي لم يفسده التفرنج والالحادان يقرأ النشيد الطلياني الذي ننقل ترجمته عن جريدة الفتح نقلا عن جريدة الشرق عدد ٥٤٣ وهو :

ان من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره ان لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس ، والراية الثلاثة الالوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة . يا أماه أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتأملي ، ألا تعلمين ان إيطاليا تدعونى وانا ذاهب الى (طرابلس) فرحاً مسروراً لابذل دمي في سبيل سحق الامة الملعونة (كذا) ولاحارب الديانة الاسلامية التي تجيز البنات الابكار للسلطان (*)

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن (كذا)

ليس بأهل للمجد من لم يمت إيطالياً حقاً

تحمسي أيتها الوالدة ، تذكري (كاروني) التي جادت باولادها في سبيل وطنها ... =

(*) الديانة الاسلامية لاتجيز للسلطان الا ماتجيزه لغيره من المسلمين وهو تزوج البكر والثيب ، ولكن الافرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الاسلام وتبيح لهم مدنيتهم الزنا حتى أفسدوا كل قطر دخلوه ببغاياهم ولا سيما الطليان منهم

أملهم هذا انقطع منهم كل رجاء وبطلت كل حركة ، وأصاب بعضهم اليأس الذي هو مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم (انه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

ولنضرب مثلا ثالثا ونمسك بعده عن ضرب الامثال لانها لاتعد ولاتحصى :

قام أهل الريف في وجه الدولة الاسبانية مدة بضع سنين الى أن تغلبوا عليها وطردوا جيوشها بعد أن أبادوا منهم في واقعة واحدة ٢٦ ألف جندي وغنموا ١٧٠ مدفعا وجميع أهل الريف بقضهم وقضيضهم ثمانمائة ألف نسمة. وعدد أهالي اسبانية ٢٢ مليون نسمة ، وأراضي

= يا أماه انا مسافر ، الا تعلمين ان على الامواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا المراسى ؟ انا ذاهب الى طرابلس مسروراً لان رايتنا المثلثة الالوان تدعوني ، وذلك القطر تحت ظلها

لا تموتي لاننا في طريق الحياة ، وان لم ارجع فلا تبكي على ولدك ، ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الاصيل تحمل الى طرابلس وداعك الذي يأبي الحداد على قبر فلذة كبدك ، وان سألك أحد عن عدم حدادك علي فاجيبيه : انه مات في محاربة الاسلام

الطبل يقرع يا أماه . انا ذاهب أيضاً . ألا تسمعين هزج الحرب ، دعيني أعانقك وأذهب !

الريف أكثرها قاحل والاهالي فيه فقراء يعيشون من كسب أيديهم، ولقد قاموا بعمل أدهش أهل الارض بالطول والعرض

فلو كان أهل الريف نصارى لانثالت عليهم الملايين من الجنيهات من كل الجهات إما بطريقة خفية وإما بواسطة جمعية الصليب الاحمر في سبيل مداواة جرحاهم

فليقل لنا المسلمون كم جنيها قدموا للريف في ذلك الوقت؟

ثم تألب الفرنسيس مع الاسبانيول وحشدوا لحرب الريفيين ٣٠٠ ألف مقاتل وحصروا الريف من كل جانب من البر والبحر، وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفيين تحصى بالمئات لا بالعشرات ولم تكتف طيارات الفرنسيس والاسبانيول حتى جاء سرب طيارات أميركية من نيويورك نجدة لفرنسة واسبانية (النصر انيتين على المسلمين لانهم مسلمون)

هذا كله والمسلمون ينظرون الى حرب الريف مكتوفي الايدي، ولبثوا مكتوفي الايدي مدة سنة. وأخيراً نهض منهم أفراد لجمع شيء من أجل جرحى الريف، ولاجل بعث الحمية في الناس لم يكتف محرر هذه السطور بالكتابة بل تبرعت باربعة جنيهات لاجل القدوة، فماذا كان مجموع تلك الاعانات من كل العالم الاسلامي؟ الجواب ١٥٠٠ جنيه

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل

ويا ليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد في خذلان الريفيين بل قامت منهم فئام يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الاجانب، وتألبت على محمد ابن عبد الكريم قبائل وافرة العدد شديدة البأس ومالؤا الفرنسيس والاسبانيول على أبناء ملتهم ووطنهم تزلفاً الى الفرنسيس والاسبانيول وابتغاء الحظوة لديهم . وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسة، وجرى في بلاد اسلامية كثيرة، أفبمثل هذه الاعمال يطالب أخونا الشيخ بسيوني عمران ربه بما وعد تعالى به من جعل العزة للمؤمنين ؟

واذا سألت هؤلاء المسلمين المائلين للعدو على اخوانهم : كيف تفعلون مثل هذا وأنتم تعلمون انه مخالف للدين وللشرف وللفتوة وللمروءة وللمصلحة وللسياسة؟ أجابوك : كيف نصنع فإن الاجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا، فاضطررنا الى القتال في صفوفهم خوفاً منهم ؟ ونسوا قوله تعالى (أتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم مؤمنين) وقوله تعالى (فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين)

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح فان الاجانب قد ندبوا كثيراً من المسلمين الى خيانات كهذه فلم يجيبوهم ولم تنقض عليهم

السماء من فوقهم ، ولا خسفت بهم الارض من تحتهم ، ثم انه ان كان الاجانب المحتلون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يغضبون على المسلمين الذين لا يلبون دعوتهم الى خيانة قومهم ، فنما كان ذلك من أجل ان كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة اخوانهم ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة ، ويبدون كل أمانة لهم في أثناء تلك الخيانة . ولولا هذا التبرع بالخيانة ، والتسرع الى مظاهرة الاجنبي على ابن الملة ، لما استأسد الاجنبي وصار يتحكم في المسلمين هذا التحكم الفاحش ، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم ومقتضى مصلحة دنياهم من اجل مصلحته ، بل قام يحملهم على الموت لاجل الموت

فان الموت موتان : أحدهما الموت لاجل الحياة وهو الموت الذي حث عليه القرآن المؤمنين اذا مد العدو يده اليهم ، وهو الموت الذي قال عنه الشاعر العربي :

تاخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل ان اتقدما

وهو الموت الذي يموته الافرنسي لاجل حياة فرنسة ، والالماني لاجل حياة ألمانية ، والانكليزي في سبيل بريطانية العظمى — وهلم جراً — ويجده على نفسه واجباً لايتاخر عن أدائه طرفة عين

وأما الموت الثاني فهو الموت لاجل استمرار الموت ، وهو الموت

الذي يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم . وذلك انهم يموتون حتى ينصروها على اعدائها كما يموت المغربي مثلا حتى تنتصر فرنسة على ألمانية مثلا. ويموت الهندي حتى تتغلب انكلترة على اي عدو لها . ويموت التتري في سبيل ظفر الروسية . والحال انه بانتصار فرنسة على أعدائها تزداد في المغرب غطرسة وظلما وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضما لحقوقهم . وذلك كما حصل بعد الحرب العامة اذ ازداد طمع الفرنسيس في اهل المغرب وحدثوا انفسهم بتنصير البربر

وبالاختصار يموت المغربي على ضفاف الرين او في سورية حتى يزداد موتا في المغرب، لان كل طائلة تفوز بها فرنسة في الخارج هي زيادة في قهر المغربي وإعناته واذلا له مما لاسبيل للمناكرة فيه ، ومما قد ثبت بالتجربة . وكذلك موت الهندي في سبيل نصرة انكلترة هو تطويل في اجل عبودية الهند . وكذلك موت التتري في خدمة الروسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر . وهلم جراً

وهذا الموت لاجل الموت هو ما كان يخطمنحن كما يقال، اي باعتبار النتيجة ، ولكنه هناك موت لاجل الموت مباشرة بدون واسطة ، وهو عند مايموت المغربي في قتال أخيه المغربي الذي قام يحاول أن يزحزح شيئا من النير الافرنسي الذي كاد يدق عنقه، وان لم يدق عنقه بتاتا استحياه حياة هي اشبه بالموت

ولو انحصرت هذه الامور في العوام والجهلاء نعذرناهم بجهلهم ، وقلنا انهم لا يدرون الكتاب ولا السنة ولا السياسة الدنيوية ، ولا الاحوال العصرية ، وانهم انما يساقون كما تساق بهيمة الانعام الى الذبح

ولكن الانكى هو خيانة الخواص . مثال ذلك الوزير المقري الذي هو أشد تعصبا لقضية رفع الشريعة الاسلامية من بين البربر من الفرنسيس أنفسهم . ومثله البغدادي باشا فاس الذي طرح نحو مائة شخص من شبان فاس وجلدهم بالسياط لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء «يالطيف الطف بما جرت به المقادر ، ولا تفرق بيننا وبين اخواننا البرابر» ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الاسلامي من بين البربر ليس باخراج للبربر من الاسلام! وهلم جرا

وكل من هؤلاء الخونة المارقين أخزاهم الله قد بلغ من الكبر عتيا ، وانتهى من أموال الامة شبعا وريا ، وهو لا يزال حريصا على الزلفى الى فرنسة ، واثبات صداقته لها ولو بضياع دينه ودنياه ، حتى تبقى عليه منصبه وحظوظه في هذه البقية الباقية من حياته التاعسة (١)

(١) الغريب في هذا ان أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلها للاجنبي بثمن خسيس هو جزء منها لا من مال الاجنبي ، ولو اخلصوا في صده عنها لكان لهم منها أكثر مما يعطيهم الاجنبي منها ثم يكون باقيها لاولادهم واهليهم واخوانهم في الدين مع العز والشرف

وليس واحد من هؤلاء ولا من في ضربهم في المغرب الا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لامة البربر ، وليس فيهم الا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يجوس خلال بلاد البربر ويبني الكنائس ويتصيد اللقطاء والايتام والفقراء وضعفاء الايمان ، وليس فيهم الا من هو عالم بمنع فرنسة فقهاء الاسلام والوعاظ من التجوال بين البربر حتى ترتفع الحواجز امام دعوة المبشرين الى النصرانية . وقد يكون المقري والبغدادي هذان هما في مقدمة الموقعين على الاوامر بمنع علماء الاسلام وحملة القرآن من الدخول الى قرى البربر . وقد يكون المقري هذا هو الذي خصص المبلغ من مال المخزن لجريدة « مراكش الكاثوليكية » التي تطعن في الاسلام ، وتقذف محمداً عليه الصلاة والسلام ، ولدينا كثير من أعدادها التي تتضمن هذه المطاعن

وبعد هذا فمن يدري ؟ فقد يكون المقري مصليا وصائما وبيده سبحة يقرأ عليها أوراداً . ومن يدري ؟ فقد يكون البغدادي السيء الذكر ممن يتمسحون بالقبور ويستغيثون بالاولياء ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب . وأما المفتي فهو المفتي فلا حاجة الى تثبيت كونه يصلي الخمس ، ويصوم ويتهجد ، ويوتر ويتنفل الخ

وقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لاوائل عهد الاحتلال لكن لم تكن خيانة هؤلاء المعممين في قضية دينية مباشرة.. فقد اقترحت عليهم فرنسة أن يمضوا برقية الى جمعية الامم ينكرون بها عمل المؤتمر السوري الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين ، فأمضاه منهم عمائم مكورة ، وطيالس محررة مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطون عظيمة ، وان لم أقل الآن : أخزاهم الله ، أخشى عتاب اخواننا المغاربة الذين يرونني خصصت بهذا الدعاء صدرهم الاعظم ، ومفتيهم الاكبر ، وأعفيت معممي سورية ، فلذلك يقضي العدل بأن نقول أخزاهم الله أجمعين ، أخزى الله الذين منهم في المشرق والمغرب ممن يوقعون على اقتراحات الاجانب المضرة بالدين والوطن

ولعل الاخ الشيخ بسيوني عمران يقول : ان هؤلاء أفراد قلائل فلا يجوز أن نجعل الامة الاسلامية مسؤولة عن مخازيهم وموبقاتهم

والجواب على ذلك : أن الظلم يخص والبلاء يعم كما لا يخفى ، ولكني لا أسلم أن هؤلاء أفراد قلائل ، وأن الامة غير مسؤولة ! إذ لو كان وراء هؤلاء أمة يخشونها ما تجاسروا على الاتجار بدينها بعد الاتجار بدنياها ، بل كانوا لو اقترح عليهم الفرنسيس اقتراحا مضراً بملتهم وأمتهم ولم يقدروا على رده اعتزلوا مناصبهم ، ولزموا بيوتهم ، وكان

الفرنسيس كافوا بالعمل غيرهم ، فاذا أبى الخلف ما أباه السلف مرة بعد مرة علم الفرنسيس أن لا فائدة في الاصرار ، فعدلوا عن دسيستهم البربرية وما أشبهها ، ولكنهم مصرون عليها بسبب استظهارهم بأناس ممن يزعمون أنهم « مسلمون » فهم يهدمون الاسلام بمعاول في أيدي أبنائه ، ويقولون لسنا من هذا الامر في قبيل ولا دبير

أفلا ترى كيف قالوا عن الظهير البربري إنه قد أصدره السلطان وحكومة المخزن ؟

أفهذا هو الاسلام الذي يناشد الله الشيخ بسيوني عمران بتأييد أهله ؟ قال الله تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون)

ولا شك أن « المسلمين » الذين يبلغون هذه الدركات من الانحطاط وتتركهم الامة الاسلامية وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للاسلام التمحيص الذي هو فيه [1] فانما سمح الله بان يستولي الاجانب

---

(١) هكذا في الاصل ومعنى يستحقون هنا يستوجبون على قول الفارابي واللام في للاسلام للتقوية والمراد به المسلمون . والمعنى يستوجبون بجرائمهم تمحيص المسلمين في جملتهم ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويفسره ما بعده وهو مستنبط من قوله تعالى في سياق غزوة أحد (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المؤثر في الجزء الرابع من تفسير المنار

على ديار المسلمين ويجعلوهم خولا ، ويغتصبوا جميع حقوقهم ، تعليما لهم وتهذيبا ، وتصفية وتطهيراً كما يصفى الذهب الابريز بالنار

قال الله تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون)

لقد أصبح الفساد إلى حد أن أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون . وأن المسلم اذا أراد أن يخدم ملته أو وطنه قد يخشى أن يبوح بالسر من ذلك لاخيه ، إذ يحتمل أن يذهب هـذا إلى الاجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى ، وقد يكون أمله بها فارغا

ولله در الملك ابن سعود حيث يقول : ماأخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ماأخشى من الاجانب كما أخشى من المسلمين [1]

---

(١) وقال في محفل حافل بحجاج الاقطار — وقد طالبه مصرى أزهري بمحاربة الانكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين ذاكراً أعداوتهم لهم :ـ الانكليز والفرنسيس معذورون إذا عادونا لانه لايجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة ، ولـكن المصيبة التي لاعذر لأحد فيها ان المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم ، وأنا والله لاأخاف الاجانب وإنما أخاف من المسلمين ، فلو حاربت الانكليز لما حاربوني إلا بجيش من المسلمين

وهو كلام أصاب كبد الصواب ، فانه مامن فتح فتحه الاجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه أو قسم منه على أيدي أناس من المسلمين، منهم من تجسس للاجانب على قومه ، ومنهم من بث لهم الدعاية بين قومه ، ومنهم من سل لهم السيف في وجه قومه ، وأسال في خدمتهم دم قومه

فأين اسلامهم وايمانهم من قوله (انما المؤمنون إخوة) وقوله (ومن يتولهم منكم فانه منهم) وقوله (انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) وقوله (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين)

أفبمثل هذا تكون طاعة الله ورسوله ؟ أم بمثله تكون اخوة الايمان وولايته وولاية أهله ؟

أو لمثل هؤلاء يعد الله العز والنصر والتمكين في الارض ، وهم سعاة بين أيدي الاجانب على ملتهم ووطنهم وقومهم ؟ كلما عاتبهم الانسان على خيانة اعتذروا بعدم امكان المقاومة ، أو باتقاء ظلم الاجنبي ، أو بارتكاب أخف الضررين ؟ وجميع اعذارهم لا تتكيء على شيء من الحق.
ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملتهم بسيوفهم فان لم يستطيعوا فبأقلامهم،

فان لم يستطيعوا فبألسنتهم ، فان لم يستطيعوا فبقلوبهم (١) فأبوا الا أن يكونوا بطانة للاجانب على قومهم ، وأبوا إلا أن يكونوا رواداً لهم على بلادهم ، وأبوا إلا أن يكونوا مطايا للاجانب على أوطانهم ، وتراهم مع ذلك وافرين ناعمي البال ، متمتعين بالهناء وصفاء العيش ، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ، ومما فجروا من دماء المسلمين ، وينامون مستريحين . مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعـذبهم من الداخل ، ولا نجد من المسلمين من يجرأ أن يعذبهم من الخارج

لم نكن لنطلق الكلام اطلاقا على العالم الاسلامي في هذا الموضوع ، فان الامة الافغانية مثلا لا يمكن أحداً أن يحطب فيها في حبل الاجانب علنا ويبقى حيا ، والنجديون لا يوجد فيهم من يجرأ أن يمالئ الاجانب على قومه ، والمصريون قد ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذي قبل ، فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للاجنبي أو تفضيل حكم الاجنبي خطراً عليه . فأما في سائر بلاد الاسلام فمن شاء من المسلمين أن يخلع

---

(١) إشارة إلى حديث « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن كلهم وهذا في وجوب تغيير المنكرات يفعلها المسلم ، فماذا يقال في مقاومة هدم الاسلام من أساسه ؟

الرسن ويجاهر بالعصوبة لعدو دينه وبلده فلا يخشى شراً، ولا يحاذر قلقا ولا أرقا .

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لايشركون بي شيئا) ؟

حاشى لله أن يكون تعالى عنى بهؤلاء « المسلمين » الذين يخونون ملتهم ويسعون بين يدي أعدائها ويناصبون اخوانهم العداوة ابتغاء مرضاة الاجانب والحصول على دنيا زائلة وحطام فان، كيف وقد قرن الايمان بلازمه وهو عمل الصالحات ؟ بئسما شروا به أنفسهم . وكذلك لايعني الله بهؤلاء المسلمين الذين ان لم يكونوا خامروا على قومهم ، وسعوا بين أيدي الاجانب في خراب أمتهم ، وأوطأوا مناكبهم لركوب الغريب الطامح ، فانهم اكتفوا من الاسلام بالركوع والسجود ، والأورادوالأذكار ،واطالة السبحة ،والتلوم في السجدة، وظنوا أن هذا هو الاسلام ، ولو كان هذا كافيا في اسلام المرء وفوزه في الدنيا والأخرى لما كان القرآن ملآن بالتحريض على الجهاد ، والايثار على النفس،والصدق والصبر ، ونجدة المؤمن لأخيه،والعدل والاحسان،

وجميع مكارم الاخلاق . ولو كان هذا كافيا لاجل التحقق بالاسلام لما قال الله تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين) [١]

أفيقدر أخونا الشيخ بسيوني عمران أو غيره ان يقول ان المسلمين اليوم إلا النادر الاندر ، والكبريت الاحمر ، يفضلون الله ورسوله على آبائهم وأبنائهم واخوانهم وأزواجهم وتجارتهم وأموالهم ومساكنهم؟ أو يؤثرون حب الله ورسوله - وانما حب الله ورسوله إقامة الاسلام - على الجزء اليسير من أموال اقترفوها .وتجارة يخشون كسادها ؟

لنعمل هذه التجربة .. فبضدها تتبين الاشياء

لنفرض أن مسئلة تنصير البربر دخلت في طور النجاح ، وانتدب البابا الكاثوليك الذين في العالم لبذل الاموال اللازمة لهذا التحويل الذي تتوخاه فرنسة في البربر من دين الاسلام إلى دين النصرانية ، فكم مليونا تظن من الجنيهات يدر على المبشرين والرهبان والراهبات لبناء الكنائس والمدارس والملاجيء والمستشفيات ومراكز الاسقفيات

(١) راجع تفسير الآية وماقبلها في ص ٢٢٤-٢٤٢ ج ١٠ من تفسير المنار

وما أشبه ذلك لاتمام هذا العمل الذي تضم به الكثلكة ثمانية ملايين من البرابر إلى الاربعمائة مليون كاثوليكي الذين في العالم ؟

لاشك أن الجواب يكون : عدة ملايين تجمع في بضعة أشهر

فان قيل للبروتستانت : تعالوا فقد أذناكم بتنصير البرابرة فابذلوا في هذه السبيل ماأمكنكم ، فانها تدر حينئذ الملايين بقدر ضعفي ما يدر من الكاثوليك وفي مدة أقصر من المدة التي يجتمع فيها المال الذي يجود به الكاثوليك

فلنقل للمسلمين : ان البرابرة صاروا على شفا الخروج من الاسلام ، وإن الاس في هذا الصبوء عن دين الاسلام هو الجهل . فعلينا أن نرسل اليهم علماء ووعاظا ليتفقهوا في الدين ، وان نبني لهم المساجد والمدارس والكتاتيب والملاجيء إلى غير ذلك من الوسائل التي تمسك بحجزاتهم عن مفارقة الاسلام والمسلمين

فكم تظن المبلغ الذي يجود به المسلمون بعد اللتيا والتي لهذا العمل ؟ لاأظن انهم يجودون بما يتجاوز جزءاً من مائة مما يبذله الكاثوليك أو البروتستانت

فهذه هي حمية المسيحيين على دينهم ، وهذه هى حمية المسلمين ، ومن الناس من يسأل عن أسباب انحطاط المسلمين وقصورهم عن مباراة

سواهم ، ولو تأمل في هـذه الفروق في النهضة والحميـة لوجد عندها الجواب الكافي

ومن أغرب الامور أن نرى الاوربيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين بعدهذا كله يتهمون المسلمين بالتعصب الديني ، وينبزونهم بلقبه ، وينتحلون لأنفسهم التساهل في الدين ! ان هذا والله لعجب عجاب

وهاأنا ذا الآن في كتابتي هذه التي معناها الدفاع لاالتجاوز ، والاستاذ الاكبر صاحب المنار ، وعبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين ، والأستاذ صاحب مجـلة الفتح ـ وغيرنا من الرجال الذين يبغون منع الاعتداء على الاسلام وينادون المسلمين ليتنبهوا للخطر المحدق بهم ـ متهمون بالتعصب الديني ومنبوزون بهذه الكلمة ، لا بين غير المسلمين فقط ، بل بين المسلمين الجغرافيين أيضاً — أعني الذين يتباهون بأن سياستهم « لادينيـة » وطالما صرحوا بانهم لايقيمون للدين وزنا ، وطالما تزلفوا إلى المسيحيين بكونهم هم لايدافعون عن الدين الاسلامي كما يدافع زيد وعمرو ...

فالمسلم اذاً لايخلص من لقب « متعصب » إلا اذا سمع أن الفرنسيس يحاولون تنصير البربر فمر بذلك كأن لم يسمع شيئا ، وإلا اذا سمع أن الهولانديين نصروا مائة ألف — وقد زعم أحد نواب

البرلمان الهولاندي أنهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمي الجاوي وهز كتفه قائلا : أنا لايهمني أكان الجاوي مسلما أم مسيحيا ... — هنالك «المسلم» يصير «راقيا» ويعدُ «عصريا» ويقال فيه كل خير !؟

وأما الاوربي فله أن يبذل القناطير المقنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين ، وله أن يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات ، وله أن يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة ، وله أن يدس كل دسيسة ممكنة لهدم الاسلام في بلاد الاسلام ، وليس عليه حرج في ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة « راق » و« متمدن » و«عصري» وأغرب من هذا أنه لايسلبه نعت « مدني » و«لاديني » و«متساهل»

وهؤلاء « المسلمون الجغرافيون » برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين ، وبرغم ماعملته جمهورية فرنسة « اللادينية » في قضية البربر لمآرب دينية كاثوليكية ، وبرغم حماية هولاندة لمبشري الانجيل في الجاوى ، وبرغم قرار الحكومة البلجيكية رسميا اكمال تنصير أهل الكونغو ، وبرغم منع الانكليز في الاوغاندة وفي دار السلام — وكذا السودان — بث الدعاية الاسلامية بين الزنوج ، وبرغم أمور كثيرة لايسعنا الآن شرحها ، لايزالون يخدعون المسلمين قائلين لهم : ان أوربة قد رفست الدين برجلها وسارت على خطة لادينية ، وبذلك قد

نجحت ونحن لن نفلح مادمنا سائرين على خطة اسلامية (١)

قد قام ببث هـذه السفسطة أناس في تركيا ووجدوا ممن تلقاها بالقبول عدداً كبيراً . وترى أناسا في مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها ويكابرون في المحسوس ولا يبالون ، لانهم يجدون على كل الاحوال من الاغرار من يصدقهم

أهم اسباب تأخر المسلمين

فمن أعظم أسباب تأخر المسلمين الجهل ، الذي يجعل فيهم من لايميز بين الخمر والخل ، فيتقبل السفسطة قضية مسلمة ولا يعرف أن يرد عليها

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين العلم الناقص ، الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط ، لان الجاهـل اذا قيض الله له مرشداً عالما أطاعه ولم يتفلسف عليه ، فاما صاحب العلم الناقص فهو لايدري ولا يقتنع بانه لايدري ، وكما قيل : ابتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون ، أقول : ابتلاؤكم بجاهل ، خير من ابتلائكم بشبه عالم

---

(١) وقد صدقوا لكن بمعنى أننا لن نفلح ما دمنا على هذه الخطة التي نكذب بتسميتها إسلامية وأننا انما نفلح اذا قمنا بحقوق إسلامنا كما يقومون بحقوق دينهم أو أشد

ومن أعظم أسباب تأخر المسلمين فساد الاخلاق، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الامة وبها أدركوا ما أدركوه من الفلاح ، والاخلاق في تكوين الامم فوق المعارف، ولله در شوقي إذ قال :

وانما الامم الاخلاق مابقيت   فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومن أكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص ، وظن هؤلاء — إلا من رحم ربك — أن الامة خلقت لهم ، وان لهم أن يفعلوا بها مايشاءون ، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى اذا حاول محاول أن يقيمهم على الجادة بطشوا به عبرة لغيره . وجاء العلماء المتزلفون لاولئك الامراء المتقلبون في نعمائهم ، الضاربون بالملاعق في حلوائهم ، وأفتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة انه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة

ولقد عهد الاسلام الى العلماء بتقويم اود الامراء . وكانوا في الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر ، يسيطرون على الامة ، ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، ويهيبون بالخليفة فمن بعده الى الصواب . وهكذا كانت تستقيم الامور لان أكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحلين بالورع ،

متخلين عن حظوظ الدنيا ، لايهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضي .
فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من
انقياد العامة لهم ، واعتقاد الامة بهم ، الا انه بمرور الايام خلف من
بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للتعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدنيا ،
فسوغوا للفاسقين من الامراء أشنع موبقاتهم ، وأباحوا لهم باسم الدين
خرق حدود الدين ، هذا والعامة المساكين مخدوعون بعظمة عمائم
هؤلاء العلماء ، وعلو مناصبهم ، يظنون فتياهم صحيحة ، وآراءهم موافقة
للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الامة تذهب ، والاسلام يتقهقر ،
والعدو يعلو ويتنمر . وكل هذا اثمه في رقاب هؤلاء العلماء (١)

ومن أعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع ، بعد أن كانوا أشهر الامم
في الشجاعة واحتقار الموت ، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمائة من
غيرهم . فالآن أصبحوا الا بعض قبائل منهم يهابون الموت الذي لايجتمع
خوفه مع الاسلام في قلب واحد . ومن الغريب ان الافرنج المعتدين

(١) وفينا هذه المسألة حقها في المنار وأهمه مقالة في المجلد التاسع
(ص ٣٥٧) عنوانها (حال المسلمين في العالمين . ودعوة العلماء الى نصيحة
الامراء والسلاطين) انحينا فيها باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في
نصيحة الملوك والامراء ، ويليها آثار عن السلف في ذلك نشرت في عدة
أجزاء من هذا المجلد

لايهابون الموت في اعتدائهم ، هيبة المسلمين إياه في دفاعهم. وان المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الافرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم ، ولا تأخذهم من ذلك الغيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة ، وقد قال الله تعالى (ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون)

وقد انضم الى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم فئات قد وقر في أنفسهم ان الافرنج هم الاعلون على كل حال ، وانه لاسبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه ، وان كل مقاومة عبث ، وان كل مناهضة خرق في الرأي . ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتخمر في صدور المسلمين امام الاوربيين الى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب ، وصار الاقل منهم يقومون للاكثر من المسلمين . وهذا بعكس ما كان في العصر الاول

يرى الجبناء ان الجبن حزم   وتلك خديعة الطبع اللئيم

نسي المسلمون الايام السالفة التي كان فيها العشرون مسلما لاغير يأتون من (برشلونه) الى (فراكسيمه) من سواحل فرانسة ويستولون على جبل هناك ويبنون به حصنا ويتزايد عددهم حتى يصيروا مائة رجل

فيؤسسون هناك امارة تعصف ريحها بجنوبي فرانسة وشمالي ايطالية ، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها ، وتستولي على رؤس جبال الالب ، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرانسة وايطالية ، ، وتضطر جميع قوافل الافرنج أن تؤدي للعرب المكوس لاجل المرور ، ثم تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد (البيامون) مسافات بعيدة الى ان تبلغ سويسرة وبحيرة (كونستانزة) في قلب أوربة ، وتضم القسم العالي من سويسرة الى أملاكها ، وتبقى خمسا وتسعين سنة مستولية على هذه الديار الى أن تتألب الامم الافرنجية عليها ، ولا تزال تناجزها الى أن استأصلتها ، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لاتزيد على الف وخمسمائة رجل (وقد نشرنا تفصيل خبرها في المجلد ٢٤ من المنار)

شبهات الجهلاء الجبناء وردها

من السخفاء من يقول : نعم قد كان ذلك لكن قبل أن يخترع الافرنج آلات القتال الحديثة ، وقبل المدافع والدبابات والطيارات ، وقبل أن يصير الافرنج إلى ما صاروا اليه من القوة المبنية على العلم . وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحماقة ، فان لكل عصر علما وصناعة ومدنية تشاكله ، وهي فيه كما هي العلوم والصناعات والمدنية

الحاضرة في هذا العصر . وأمور الخلق كلها نسبية . ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنيقات ودبابات ونيران مركبة تركيباً مجهولا اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابر الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الايام . على انه ليست الدبابات والطيارات والرشاشات هي التي تبعث العزائم، وتوقد نيران الحمية في صدور البشر، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطيارات والدبابات والقنابر . وما هذه إلا مواد صماء لافرق بينها وبين أي حجر، فالمادة لاتقدر أن تعمل شيئا من نفسها ، وإنما الذي يعمل هو الروح فاذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فعند ذلك تجد الدبابات والطيارات والرشاشات والغواصات، وكل اداة قتال ونزال على طرف الثمام

يقولون :الا أن هذا ينبغي له العلم الحديث ، وهذا العلم مفقود عند المسلمين ، فلذلك أمكن الافرنج مالم يمكنهم

(والجواب) ان العلم الحديث أيضا يتوقف على الفكرة والعزيمة ، ومتى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ووجدت الصناعة الحديثة . أفلا ترى أن اليابان إلى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الامم الشرقية الباقية على حالتها القديمة، فلما أرادوا اللحاق بالامم العزيزة تعلموا علوم الاوربيين ، وصنعوا صناعاتهم ، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة .

وكل أمة من أمم الاسلام تريد أن تنهض وتلحق بالامم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة ومتمسكة بدينها ، كما أن اليابانيين تعلموا علوم الاوربيين كلها وضارعوهم ولم يقصروا في شيء عنهم ، ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم وأوضاعهم . وأيضا فمتى أرادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها ؟ ان ملاك الامر هو الارادة فمتى وجدت الارادة وجد الشيء المراد

فلو أن أمة من أمم الاسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثاني يوم . ولكن اقتناء السلاح ينبغي له سخاء بالاموال ، وهم لا يريدون أن يبذلوا ، ولا أن يقتدوا بالافرنج واليابان في البذل ، بل يريدون النصرة بدون سلاح وعتاد ، أو السلاح والعتاد بدون بذل اموال ، وإذا تغلب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين : اين المواعيد التي وعدنا إياها القرآن في قوله (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) كأن القرآن ضمن للمؤمنين النصر بدون عمل وبدون كسب وبدون جهاد بالاموال والانفس ، بل بمجرد قولنا اننا مسلمون ، أو بمجرد الدعاء والتسبيح ؟ وأغرب من ذلك بمجرد الاستغاثة بالاولياء ، فأصبح الكثير من المسلمين وهم عزل من السلاح الحديث وغير مجهزين بالعلم اللازم لاستعماله لا يقومون للقليل من

الافرنج المسلحين المجهزين ، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في أغلب الاحيان على المسلمين . فتوالى هذا الامر عليهم مدة طويلة إلى أن فقدوا كل ثقة بنفوسهم ، واستولى عليهم القنوط ، ودب فيهم الرعب ، وألقوا بأنفسهم إلى العدو ، وبعد أن كانوا مسلمين ، صاروا مستسلمين ، وقد ذهلوا عن قوله تعالى (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين * ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس) ونسوا أنه لايجوز أن يتطرق اليأس الى قلب أحد لاعقلا ولاشرعا ، ولاسيما المسلم الذي يخبره دينه بأن اليأس هو الكفر بعينه . وغفلوا عن قوله تعالى في سلفهم (الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء) الآيات

فتجدهم اذا استنهضتهم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة أجنبية تريد لتمحوهم كان أول جوابهم : أية فائدة من بذل أموالنا في هذا السبيل وتلك الدولة غالبة لا محالة . ولو تأملوا لوجدوا ان الاستسلام لايزيدهم إلا ويلا ، ولا يزيد العدو إلا استبداداً وجبروتا ، سنة الله في

خلقه . ولو فكروا قليلا لرأوا ان هذا الشح بالمال على اخوانهم الذين في مواطن الجهاد لم يكن توفيراً وانما كان هو الفقر بعينه . لان الامة المستضعفة لا تعود حرة في تجارتها واقتصادياتها ، بل يمتص العدو الغالب عليها كل ما فيه علالة رطوبة في أرضها ، ولا يترك للامة المستضعفة إلا عظاما يتمششونها ، من قبيل « قوت لا يموت » وكثيراً ما تحصل مساغب ويموتون جوعا كما يقع كثيراً في جزائر الغرب والهند وغيرهما ، ترى المجاعات واقعة في الهند ولا يموت منها ولا انكليزي ، وتراها تشتد في الجزائر ولا يموت بها إلا المسلم . وما السبب في ذلك إلا أن الاجانب قد استأثروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين إلا الفقر . فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل الاموال لمساعدة اخوانهم بعدم وجودها ، وهذا صحيح الى حد محدود ، وذلك انهم بخلوا بها في الاول فجنوا من بخلهم على الجهاد الذل والخنوع أولا ، والفقر والجوع ثانيا . فان من سنن الله في أرضه ان الذل يردفه الفقر ، وان العز يردفه الثراء ، والمثل العربي يقول : من عز بز . والشاعر العربي الايادي يقول :

لا تذخروا المال للاعداء إنهمُ ... إن يظهروا يأخذوكم والتلاد معا
هيهات لا خير في مال وفي نعم ... قد احتفظتم بها إن أنفكم جُدعا

والمتنبي يقول :

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

فالمسلمون عز عليهم المال ففقدوه ، وعزت عليهم الحياة ففقدوها ، وأبى الله إلا تصديق كلام النبي الموحى اليه حيث يقول « يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على القصاع » قالوا : أو من قلة فينا يومئذ يا رسول الله ؟ قال « لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهل في قلوبكم وينزع من قلوب أعدائكم من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت »

هذا الحديث كان رواه لي الشيخ الكتاني الفاسي رحمه الله يوم لقيته في المدينة المنورة منذ ثماني عشرة سنة ، ثم قرأته في الكتب واستشهدت به في مقدمة حاضر العالم الاسلامي ، وألفاظه تختلف في رواية عن رواية . فالاستاذ صاحب المنار أمتع الله بطول حياته هو الادرى بأصح رواياته[١] ومعناه ظاهر وهو : ان المسلمين يأتي عليهم

---

(١) الحديث رواه أبو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعا بلفظ « يوشك أن تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة الى قصعتها » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال (ص) « بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم =

يوم يصيرون فيه ما كلة وتمتد اليهم الايدي من كل جهة ، فهذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم ، وان المسلمين لايكون عيبهم يومئذ من

= المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » ـ قال قائل : يارسول الله وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت »

قوله ﷺ « تداعى » أصله تتداعى أي تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الاكلة وهي جمع آكل كالفعلة جمع فاعل إلى قصعة الطعام ، والغثاء بالضم ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيدان ونحوها ويضرب مثلا لما لاقيمة له ولا فائدة ، والوهن بالنون الضعف ، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابه (ص) بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقيقة وإعلاء كلمة الله ، وكراهية الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة

وقد أوردت هذا الحديث في تفسير قوله تعالى (٦:٦٥ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض) الآية وأوردت قبله حديث ثوبان الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه قال قال رسول الله (ص) « إن الله زوى لي الارض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان أمتي سيبلغ ملكها مازوي لي منها ، وأعطيت الكنزين الاحمر والابيض ، واني سألت ربي لامتي ان لا يهلكها بسنة عامة ، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أي ملكهم وسلطانهم ومستقر قوتهم) وان ربي قال لي : يا محمد إذا قضيت قضاء فانه =

قلة العدد ، بل يكون عددهم كثيراً وانما لاتغنيهم كثرتهم شيئا ، لان الكثرة بنفسها لاتفيد ان لم تقترن بجودة النوع ، والكمية لاتغني عن الكيفية ، وعلة العلل في ضعف المسلمين ذلك اليوم هو الجبن والبخل ، صريح ذلك في قوله ﷺ « من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت »

ومن المعلوم ان الافراط في حب الدنيا يحرم الانسان التمتع بها ، وان الغلو في المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك ، هذه من سنن الله في خلقه أو من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر

فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله ويأمر المسلم أن يثبت ولا ييأس ، وأن يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب

= لا يرد ، واني أعطيتك لامتك أن لا أهلكهم بسنة عامة (أي قحط) وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين أقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً » ورواه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي بزيادة على رواية مسلم هذه ، وكلا الحديثين من أعلام النبوة التي ظهر بها صدقه (ص) بعد قرون من وفاته ورفع روحه إلى الرفيق الاعلى ، فما ذهب شيء من ملك المسلمين إلى أيدي الاجانب إلا بخذلان بعضهم لبعض ومساعدتهم الاجانب على أنفسهم ، وفي هذه الرسالة للامير شكيب بعض الشواهد من مسلمي هذا العصر على ذلك . وراجع الموضوع بتفصيله في تفسير الآية المشار اليها من ص ٤٩٠ - ٥٠١ ج ٧ تفسير

وتراه يقول : (وكأي من نبي قاتل معه ربيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين)

هكذا يريد الله ليكون المسلمون، فان لم يكونوا هكذا بصريح نص القرآن، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين، والسعادة والتأمين ؟

ضياع الاسلام بين الجامدين والجاحدين

ومن أكبر عوامل انحطاط المسلمين الجمود على القديم ، فكما ان آفة الاسلام هي الفئة التي تريد أن تلغي كل شيء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه أو نافع ، كذلك آفة الاسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد أن تغير شيئا ، ولا ترضى بادخال أقل تعديل على أصول التعليم الاسلامي ظناً منهم بأن الاقتداء بالكفار كفر ، وأن نظام التعليم الحديث من وضع الكفار

فقد أضاع الاسلام جاحد وجامد

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين، ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، ويحملهم على انكار ماضيهم ، ويجعلهم أشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته . وهذا الميل في النفس الى

انكار الانسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين، وانه هو يريد أن يبرأ منهم ، لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذي يشعر انه في وسط قومه دنيء الاصل ، فيسعى هو في انكار أصل أمته بأسرها لانه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الاصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلا طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك.

محافظة الشعوب الافرنجية على قومياتها

فلننظر الى أوربة – لانها هي اليوم المثل الأعلى في ذلك – فنجد كل أمة فيها تأبى أن تندمج في أمة أخرى . فالانكليز يريدون أن يبقوا انكليزاً ، والافرنسيس يريدون أن يبقوا إفرنسيسا ، والالمان لا يريدون أن يكونوا إلا ألمانا ، والطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طليانا ، والروس قصارى همهم أن يكونوا روساً ، وهلم جرا

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس ان الايرلنديين مثلا أمة صغيرة مجاورة للانكليز وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوره العقل من الجهود ليدمجوهم في سوادهم مدة تزيد على سبعمائة سنة ، فأبوا أن يصيروا انكليزاً وابثوا ايرلنديين بلسانهم وعقيدتهم وأذواقهم وعاداتهم

وفي فرانسة نفسها تأبى أمة « البريتون » الا أن تحافظ على أصلها . وفي جنوبي فرانسة جيل يقال لهم « الباشكنس » احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط ، ثم تجاه العرب ، ثم تجاه الاسبان ، ثم تجاه الفرنسيس . وجميعهم مليون نسمة . وهم لايزالون على لغتهم وزيهم وعاداتهم وجميع اوضاعهم

والفلمنك يأبون أن يجعلوا اللغة الافرنسية لغتهم ، والثقافة الافرنسية ثقافتهم ، ولم يزالوا يصيحون في بلجيكا حتى اضطرت دولة بلجيكا الى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية .

وفي سويسرة ثلاثة أقسام : القسم الالماني وهو مليونان وثمانمائة الف ، والقسم المتكلم بالافرنسية وهو ثمانمائة الف ، والقسم المتكلم بالطليانية وهو أكثر قليلا من مائتي الف ، وكل قسم منها محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع انهم كلهم متحدون في مصالحهم السياسية ويعيشون في مملكة واحدة

وان الدانمرك وبلاد الاسكنديناف وهولانده فروع من الشجرة الالمانية لامراء في ذلك ، لكنهم لايريدون الاندماج في الالمان ولا العدول عن قومياتهم وبقي « التشيك » مئين من السنين تحت حكم الالمان وبقوا تشيكا ، واستأنفوا بعد الحرب العامة استقلالهم

السياسي ، بعد أن حفظوا لسانهم واستقلالهم الجنسي مدة خمسة قرون

وقد هذب الالمان أمة المجر وعلموهم ورقوهم ولكنهم لم يتمكنوا من ادماجهم في الالمانية، فتجدهم أحرص الامم على لغتهم المغولية الاصل وعلى قوميتهم المجرية

ولبثت الروسية العظيمة من مائتين الى ثلاثمائة سنة تحاول ادخال بولونية في الجنس الروسي وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة ان العرق السلافي يجمع بين البولونيين والروس ، ففشلت جميع مساعيها في ادماج البولونيين فيها، وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة في كل شيء . وذلك لانهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميتهم

وليس من العجب أن لا تريد أمة عددها ٣٠ مليونا الاندماج في غيرها . ولكن الاستونيين وهم مليونان فقط انفصلوا عن الروسية ولم يقبلوا الاندماج فيها وأحيوا استقلالهم ولسانهم المغولي الاصل وجعلوا له حروفا هجائية . ومثلهم أهالي فنلاندة المنفصلون عن الروسية أيضا . وقد خابت مساعي الروس في ادماج اللتوانيين من هذه الامم البلطيكية في الجنس الروسي ، وانتقضوا بعد الحرب العامة أمة مستقلة كما كانوا مستقلين قوميا، وجميعهم أربعة ملايين . وأقل منهم جيرانهم اللتوانيون الذين هم مليونان لا غير ، ومع هذا قد انفصلوا بعد الحرب

وأسسوا جمهورية كسائر الجمهوريات البلطيكية لانهم من الاصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم

وقد عجز الروس من جهة كما عجز الالمان من جهة أخرى عن ادخال هذه الاقوام في تراكيبهم القومية العظيمة لان كل شعب مها كان صغيراً لايرضى بانكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي

وقد حفظ الكرواتيون استقلالهم الجنسي مع احاطة أمتين كبيرتين بهم هما اللاتين والجرمان

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم مدة قرون.

ولم يزل الارناؤوط أرناؤوطا منذ عهد لايعرف بدؤه وهم بين أمتين كبيرتين اليونان والصقالبة أي السلاف

وكذلك البلغار أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين . ثم جاءهم الترك فتعلموا التركية لكنهم بقوا بلغاراً

ولا أريد ان أخرج في الاستشهاد عن أوربة لاني إن خرجت عن أوربة قالت تلك الفئة الجاحدة : نحن لانريد أن نجعل قدوة لنا أمماً متأخرة مثلنا

فالامم التي استشهدنا الآن بها كلها أوربية، وكلها متعلمة راقية ، وكلها ذوات بلدان ممدنة منظمة ، وكلها عندها الجامعات والاكادميات والجمعيات العلمية والجيوش والاساطيل الخ

ولكني أخرج من أوربة الى اليابان فقط لان رقي اليابان يضارع الرقي الاوربي وقد تم لليابانيين كما تم رقي أوربة للاوربيين أي في ضمن دائرة قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحريتهم ودينهم وشعائرهم ومشاعرهم وكل شيء لهم

فأنقل الى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل أوربي سائح في اليابان وظهرت في جريدة « جورنال دوجنيف » بتاريخ ٢٠ اكتوبر فانه يقول :

« ان الياباني يحب الفن قبل كل شيء ، وان رأيته ساعياً في كسب المال فلاجل أن يلذذ بالمال أهواءه المنصرفة إلى الحسن والجمال . وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد عدا الميل الى الجمال ، لانه يفتخر بكون اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة من القرون الوسطى اقطاعية الحكم الى أمة عظيمة من أعظم الامم ، ومما لاريب فيه ان الديانة اليابانية هي ذات دور عظيم في سياسة اليابان (ليتأمل القاريء) وهي في الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ماتركه القدماء لسلائلهم . فالياباني العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصرية ، لكن مع حفظ الميل الدائم الى الرجوع إلى ماضيه ،

ومع التمسك الشديد بقوميته ، غير مجيب نداء التفرنج (وفي الاصل التغرب Accidentalisme) الذي لا يريد الياباني أن يأخذ منه إلا ماهو ضروري له لاجل مصارعة سائر الامم بنجاح ، ولا شك ان هذا مثال فريد في تاريخ أمم الشرق الاقصى »

ثم يقول :

« كان اليابانيون يكرهون الاسفار الى البلدان البعيدة ، ويحظرون دخول الاجانب في بلادهم ، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية ، وتلافت اليابان مافات بشكل مدهش . والنتائج هي أمامنا ، إلا أن الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظماً في جميع طبقاتهم لانه في هذا الماضي المقدس يجد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون بوسائل المدنيـة الحديثة التامة التي لا سبيل الى الحياة بدونها في أيامنا هذه ، لكن ينبذون كل « تغرب » بمجرد مايجدون أنفسهم في غنى عنه ، ويعودون مع اللذة الى شعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون انهم الأعلون

« وهناك هيا كل « شنيتو » ومعابد « زن » والهيا كل البوذية وهي مكرمة معظمة مخدومة باشد مايمكن من الحماسة الدينية والايمان الثابت كما كانت منذ قرون . والحق ان هذا الاحترام الشديد الذي

يشعر به اليابانيون لقديمهم ولمعبوداتهم هو الذي قام عندهم حصنا منيعاً دون المباديء الشعوبية ، والافكار الشيوعية المضرة »

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسة تاليف جديد عن اليابان للمركيز «لامازليير» La Mazelière قد أطنبت الجرائد في وصفه ونشرت عنه جريدة « الديبا » مقالا رنانا ، فنحن نوصي القراء الذين يهمهم أن يعرفوا كيفية ارتقاء اليابان – وهو موضوع في غاية الجلالة لما فيه من الاستنتاج لسائر بلاد الشرق – بمطالعة هذا الكتاب الذي لا يمكن أن ينسب الى مؤلفه التعصب لليابان ، على انني رايته في الجملة مطابقا لتواريخ ألفها علماء يابانيون متخصصون في التاريخ . وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية الى الافرنسية . ولا بد لي في هذه العجالة من نقل بعض فقر من تاريخ لامازليير المذكور ، قال في اثناء الكلام على تمدن اليابان العصري وخروج هذه الامة من عزلتها القديمة مايلي :

« فبدأت اليابان تستعير من أوربة وأمريكا قسما من مدنيتهما المادية ، ومن نظامهما العسكري ، ومن مباحث تعليمهما العام ، ومن سياستهما المالية ، فكان المجددون يجتهدون في أن يقتبسوا من كل شعب مايرونه الاحسن عنده ، فكان ذلك مشروع تجديد وهدم واعادة بناء ، وظهرت آثار ذلك في جميع مناحي الحياة اليابانية »

ثم تكلم عن الحرب اليابانية الصينية ، وانتهى إلى قوله الذي نترجمه ترجمة حرفية :

« إن ظفر اليابان بالصين لم يثبت علو الافكار والمبادىء العلمية التي أخذتها اليابان عن الغرب وكفى ، بل أثبت أمراً آخر وهو أن شعبا آسيويا بمجرد ارادته وعزيمته عرف أن يختار مازآه الاصلح له من مدنيـة الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته » اه

وقبلا كنت نشرت في الجرائد — وما نشرته لم يكن إلا نقطة من غدير — خلاصة الحفلات التي أقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين وكيف استمرت مراسم هذا الاحتفال مدة شهر ، وكانت باجمعها دينية ، وكيف ان الميكادو هو كاهن الامة الاعظم ، وكيف انه من سلالة الالهة « الشمس » وكيف اغتسل في الحمام المقدس المحفوظ من ألفي سنة ، وكيف أكل مع الآلهة ! الارز المقدس الذي زرعته الدولة تحت اشراف الكهنة حتى يكون تام القدسية لاشبهة فيه ، وكيف كان ثمة في الحفل سمائة ألف ياباني وكلهم يهتفون : ليحيي الميكادو عشرة آلاف سنة إلى غير ذلك

لماذا لا نسمي اليابان وأوربة رجعية بنظرنا

فلماذا ياليت شعري تتقدم اليابان هذا التقدم السريع المدهش وتصير هذه الامة العصرية يضرب برقيها المثل وهي تضرب باعراقهـا إلى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة، ويكون امبراطورها هو كاهنها الاعظم، ولا يقال عنها «رجعية» و « مرتجعة » و «ارتجاعية»؟ (فان كانت اليابان رجعية فمرحى بالرجعية)

ولماذا كان ملك انكلترة وامبراطور الهند السيد على ٤٠٠ مليون آدمي في الارض من البيض والسمر والصفر والحمر والسود هو رئيس الكنيسة الانكليكانية ومجالسه النيابية تبحث في جلسات عديدة في قضية الخبز والخمر هل يستحيلان بمجرد تقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فعلا بدون أدنى شك أم ذلك من قبيل الرمز والتمثيل ؟ ولا يقال عنه انه « رجعي » ولا يقال عن دولته العظمى انها « متأخرة » او «متقهقرة» ؟فان كانت انكلترة بعد هذا متقهقرة فياحبذا «التقهقر»

ولماذا كانت القارة الاوربية كلها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها تتباهى بذلك في كل فرصة متحدة في هذا الامر على مابينها من عداوات ومنافسات، ولا ننبزها بقولنا « رجعية » و « ارتجاعية » والحال ان الديانة التي تدين بها أوربة عمرها ١٩ قرنا . وهذا عهد يصح أن يقال عنه قديم « وقديم

جداً » وهؤلاء اليهود ، مهما ننكر عليهم فلا نقدر أن ننكر عليهم المقدرة والذكاء والحس العملي والجد الهائل ـ لايزالون يفخرون بتوراة وجدت منذ آلاف السنين ويشاركهم فيها المسيحيون ؟

ولماذا نرى أعظم شبان اليهود رقيا عصريا يجاهدون في إحياء اللغة العبرية التي لايعرف تاريخها لتوغلها في القدم . ولايقال عنهم انهم « رجعيون » و « متأخرون » و « قهقريون » ؟

« وقد نشر وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية حديثا في جريدة « الماتن » كان من أهم مافخر به وأدلى به كمأثرة ينبغي أن تذكرها لهم الانسانية هو « ان فلسطين الحديثة تتكلم اليوم باجمعها بلغة الانبياء » يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية التي قد نشر الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة وأجبروا نشئهم الجديد على أن يتحدثوا بها لتكون اللغة الجامعة لليهود . ومن الذي فعل هذا ؟ الجواب : هم اليهود العصريون الاشد أخذاً بمباديء العلم الحديث والحضارة العصرية . (وما يذكر إلا أولو الالباب) وماذا عساني أحصي من هذه الامثال والعبر في رسالة وجيزة كهذه ؟

كل قوم يعتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات قومهم الموروثتين ولا ينبزون بهذه الالقاب !! الا المسلمين

فانه اذا دعاهم داع الى الاستمساك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم وباللسان العربي وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها قامت قيامة الذين في قلوبهم مرض .. وصاحوا : لتسقط الرجعية . وقالوا : كيف تريدون الرقي وأنتم متمسكون باوضاع بالية باقية من القرون الوسطى ونحن في عصر جديد ؟

جميع هؤلاء الخلائق تعلموا وتقدموا وترقوا وعلوا وطاروا في السماء والمسيحي منهم باق على انجيله وتقاليده الكنسية ، واليهودي باق على توراته وتلموده ، والياباني باق على وثنه وارزه المقدس ، وكل حزب منهم فرح بما لديه . وهذا المسلم المسكين يستحيل أن يترقى إلا إذا رمى قرآنه وعقيدته ومآخذه ومتاركه ومنازعه ومشاربه ولباسه وفراشه وطعامه وشرابه وأدبه وطربه وغير ذلك وانفصل من كل تاريخه ، فان لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقي !

فهذا ما كان من ضرر الجاحد الذي يقصد السوء بالاسلام وبالشرق أجمع ويخدع السذج باقاويله

غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين

وبقي علينا المسلم الجامد، الذي ليس باخف ضرراً من الجاحد، وان كان لا يشركه في الخبث وسوء النية، وانما يعمل مايعمله عن جهل وتعصب

فالجامد هو الذي مهد لاعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بان التأخر الذي عليه العالم الاسلامي انما هو ثمرة تعاليمه

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لانه جعل الاسلام دين آخرة فقط . والحال ان الاسلام هو دين دنيا وآخرة . وان هذه مزية له على سائر الاديان . فلا حصر كسب الانسان فيما يعود للحياة التي وراء هذه كما هي ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهده في مال الدنيا ومدنها ومجدها كتعاليم الانجيل، ولا حصر سعيه في أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هي مدنية أوربة الحاضرة

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة انها من علوم الكفار . فحرم الاسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذي هم فيه وقص أجنحتهم . فان العلوم الطبيعية هي العلوم الباحثة في الارض . والارض لاتخرج أفلاذها الا لمن يبحث فيها[1] فان كنا طول العمر لا نتكلم الا فيما هو عائد

«١» كان جدي الادنى رحمه الله تعالى يقول : ان جار عليك الزمان فعليك ان تجور على الارض . أي تلح وتجتهد في استخراج خيراتها

للآخرة قالت لنا الارض : اذهبوا توًا إلى الآخرة فليس لكم نصيب مني . ثم اننا بحصر كل مجهوداتنا في هذه العلوم والمحاضرات الاخروية جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بازاء سائر الامم التي توجهت الى الارض، وهؤلاء لم يزالوا يعلون في الارض ونحن ننحط في الارض ، إلى أن صار الامر كله في يدهم ، وصاروا يقدرون أن يأفكونا عن نفس ديننا، فضلا عن أن يملكوا علينا دنيانا . وليس هذا هو الذي يريده الله بنا وهو الذي قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) الآية وقال (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا) وقال (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة) وقال فيما حكاه وأقره (ولا تنس نصيبك من الدنيا) وعلمنا أن ندعوه بقوله (ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) الخ

والمسلم الجامد لايدري انه بهذا المشرب يسعى في بوار ملته وحطها عن درجة الامم الاخرى، ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جرها على قومه اهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه ، وصاروا عيالا على أعدائهم الذين لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة ، فهو اذا نظر الى هذه الحالة عللها بالقضاء والقدر بادىء الرأي ، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا يحيلون على الاقدار .

هـذا الخلق هو الذي حبب الكسل الى كثير من المسلمين فنجمت فيهم فئة يلقبون « بالدراويش » ليس لهم شغل ولا عمل ، وليسوا في الواقع إلا أعضاء شلاء في جسم المجتمع الاسلامي .

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الافرنج يقولون ان الاسلام جبري لا يأمر بالعمل ، لان ماهو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل .

آيات العمل المبطلة لتفسير القدر بالجبر والكسل

ولا شيء أدل على فساد هذا الزعم الافرنجي من القرآن الملآن بالحث على العمل وباستنهاض الهمم ، وابتعاث العزائم ، ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذي يعمله المكلف . قال الله تعالى (وقل اعملوا فسيري الله عملكم ورسوله) وقال تعالى (وإن جادلوك فقل: لي عملي ولكم عملكم) وقال تعالى (وسيري الله عملكم) وقال تعالى(ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) وقال تعالى (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) وقال تعالى (والله معكم ولن يتِرَكم أعمالكم) أي لا ينقصكم أعمالكم ، وقال تعالى (وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا) لا يلتكم من لاته يليته أو ولته يلته بمعنى نقصه ، أي لا يبخسكم من أعمالكم شيئا ، وقال تعالى (نوفّ اليهم أعمالهم فيها وهم

فيها لا يبخسون) وقال عز وجل (وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم)
وقال عز وجل (وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وقال عز وجل
(اني لا أضيع عمل عامل منكم) وقال عز وجل (فنعم أجر العاملين)
وقال عز وجل (لمثل هذا فليعمل العاملون) وقال عز وجل (اليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وقال عز وجل (وتوفى كل نفس
ماعملت) وقال عز وجل (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن
فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال
عز وجل (يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً وما عملت من
سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا) وقال عز وجل (ووفيت كل نفس
ماعملت وهو أعلم بما يفعلون) وقال عز وجل (فأصابهم سيئات ماعملوا)
وقال تبارك وتعالى (ووجدوا ماعملوا حاضرا) وقال تبارك وتعالى (ليذيقهم
بعض الذي عملوا) وقل تبارك وتعالى (إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك
لهم جزاء الضعف بما عملوا) وقال تعالى (ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم
أعمالهم وهم لا يظلمون) وقال تعالى (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن
يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال تعالى (سيجزون ما كانوا يعملون) وقال
تعالى (جزاء بما كانوا يعملون) وقال تعالى (ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون)
الى غير ذلك مما لا يكاد يحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن ، ومنها ماهو

نص في مسألتنا كقوله تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم) وقوله (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم)

ان صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون ان هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة ايمانا واسلاما وهم أصحاب رسول الله ﷺ إذ تعجبوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرماة الذين يحمون ظهور المقاتلة بألا يبرحوا أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم، فلما انهزم المشركون خالفوا الامر لمشاركة المقاتلين في الغنيمة فكر عليهم المشركون حتى شج رأس النبي ﷺ الخ

وكلها ناطقة بأن الاسلام هو دين العمل لا دين الكسل، ولا هو دين الاتكال على القدر المجهول للبشر، كما يقول الدراويش البطالون: رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل، او كما يزين للناس بعض مؤلفي الافرنج من ان دين الاسلام دين جمود وتفويض وتسليم، وان تأخر المسلمين انما نشأ عن ذلك.

ولو كان في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخبر الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الارض في خمسين سنة، ولكن التسليم الذي يتكلمون عنه ويهرفون فيه بما لا يعرفون انما هو مقرون بالعمل وبالكدح وبالسعي، والا فلا يسمى تسليما بل يسمى جموداً، ويعد

بطالة وهو مخالف للقرآن وللسنة . وأما اذا كان التسليم لله مقرونا بالعمل فانه أنفع في الدنيا والاخرى ، لان افراط المرء في الاعتماد على نفسه يورطه في البطر إذا نجح ، وفي الجزع إذا فشل . والذي يريده الاسلام انما هو أن يعقل الانسان ويتوكل (١) وأن يدبر لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشداً ، ويعلم مع ذلك ان ليس كل الامر بيده ، وان من الاقدار مالا تدركه الافكار . وهذا صحيح ، ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم القدر سأله بعض أصحابه ألا نتكل ؟ فقال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » رواه البخاري ومسلم

ومن أغرب الغرائب أن هؤلاء الافرنج الذين لا يفتئون ينعتون الاسلام بالجبرية وينسبون تأخر المسلمين إلى هذه العقيدة — التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين — يذهلون عما هو وارد في الانجيل من آيات القضاء والقدر التي تماثل ما في القرآن وقد تزيد عليه مثل قوله :

«١» في قوله يعقل هنا تورية لاحتماله معنيين : ظاهرهما تحكيم ادراك العقل في الامور مع التوكل على الله ، والثاني عقل الناقة المراد به الاخذ بالاسباب مع التوكل ، اذ فيه اشارة الى حديث الاعرابي المشهور بين الناس حتى صار مثلا « اعقلها وتوكل » وفي رواية « قيدها وتوكل » يعني ناقته فلم يأذن له (ص) ان يتركها توكلا

لاتسقط شعرة من رؤوسكم إلا باذن أبيكم السماوي . ومثل آي كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال . ولا نجد في الافرنج الذين هم مغرمون بالعمل وهائمون وراء الكسب ومنكرون للقضاء والقدر في الجملة ، إلا من يقرأ الانجيل الشريف ويقدسه ويعجب بمبادئه السامية كما نعجب بها نحن . فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر ؟ وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجبرية؟ (يحلونه عاما ويحرمونه عاما) وحقيقة الامر ان كل ماهو وارد في الانجيل وكل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر انما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع (١) . ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والتزهيد في الكسب .

«١» هذا التفسير قول لبعض المتكلمين وهو ان تعلق علم الله بوجود المخلوقات في الازل هو القضاء ووجودها على وفق العلم هو القدر ، وقال بعضهم انه تعلق الارادة الخ والتحقيق ان القدر والمقدار هو النظام الذي جرت به سنن الله تعالى في التكوين والتدبير والاسباب والمسببات كما يفهم من نصوص الآيات كقوله تعالى « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقوله « وانزلنا من السماء ماء بقدر » الآية - وقوله في نظام جعل النطفة في الرحم « الى قدر معلوم » وقوله « ثم جئت على قدر ياموسى » وقد حققنا المسألة في المنار والتفسير مرارا

وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الانجيل الشريف ما يدل على ما عزاه القرآن الى صحف ابرهيم وموسى أي وغيرهما من رسل الله (أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للانسان إلا ماسعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الاوفى)

كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الاسلام وحجة عليه

ونعود الى المسلم الجامد فنقول : انه هو الذي طرق لاعداء الاسلام على الاسلام، وأوجد لهم السبيل الى القالة بحقه ، حتى قالوا انه دين لا يأتلف مع الرقي العصرى ، وانه دين حائل دون المدنية . والحقيقة أن هؤلاء الجامدين هم الذين لا تأتلف عقائدهم مع المدنيـة ، وهم الذين يحولون دون الرقي العصرى . والاسلام براء من جماداتهم هذه .

ان الاسلام هو من أصله ثورة على القديم الفاسد ، وجبٌّ للماضي القبيح ، وقطع مع كل العلائق غير الحقائق ، فكيف يكون الاسلام ملة الجمود ؟ والقرآن هو الذى جاء فيه من قصة ابراهيم عليه السلام (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين) وجاء فيه (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم

إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون * فانهم عدو لي إلا رب العالمين) وجاء فيه : (انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون * قال او لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم) وجاء فيه (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) وجاء فيه : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء الى صراط مستقيم) وغير ذلك من الآيات الداعية الى الثورة على القديم إذا لم يكن صحيحاً ولم يكن صالحا

على ان الذين يفهمون الاسلام حق الفهم يرحبون بكل جديد لا يعارض العقيدة ، ولا تخشى منه مفسدة . ولا أظن شيئاً يفيد المجتمع الاسلامي يكون مخالفاً للدين المبني على إسعاد العباد . أفلا ترى علماء نجد وهم ابعد المسلمين عن الافرنج والتفرنج ، وأنآهم عن مراكز الاختراعات العصرية ، كيف كان جوابهم عند ما استفتاهم الملك عبد العزيز بن سعود أيده الله في قضية اللاسلكي والتليفون والسيارة الكهربائية ؟ أجابوه انها محدثات نافعة مفيدة ، وانه ليس في كتاب الله ولا في سنة رسول الله لا بالمنطوق ولا بالمفهوم مايمنعها .

أفليس الادنى لمصلحة الامة أن تقدر الدولة على معرفة أي حادث يحدث بمجرد وقوعه حتى تتلافى أمره ؟ أفليس الانفع للمسلمين أن يتمكن الحاج ببضع ساعات من اجتياز المسافات التي كانت تأخذ أياما وليالي؟ لقد سألت الشيخ محمد بن علي بن تركي من العلماء النجديين الذين بمكة عن رأيه في التليفون واللاسلكي فقال لي : هذه مسئلة مفروغ منها، وأمر جوازها شرعا هو من الوضوح بحيث لا يستحق الاخذ والرد

ولم تكن مقاومة الجديد خاصة بجامدي الاسلام ، فقد قاومت الكنيسة في النصرانية كل جديد تقريبا من قول أو عمل ، ثم عادت فيما بعد فأجازته . ولما قال «غاليله» بدوران الارض كفرته ، ولا يزال يوجد الى اليوم من أحبار النصارى من يكفر كل مخالف لما جاء في التوراة من كيفيـة التكوين ، ومن سنتين حوكم أحد المعلمين في محاكم إحدى الولايات المتحدة لقوله بنظرية داروين ومنع من التدريس ، ولكن هذا لم يمنع سير العلم في طريقه (١)

فالنصارى عندهم جامدون كما عندنا جامدون ، والمسلم الجامد

«١» وقد تألف في انكلترة وامريكة حزب ديني جديد أو جمعية للدعوة الى الايمان بظواهر التوراة في الخلق والتكوين وكل شيء من غير تأويل (راجع ص٧٢٣ م ٣٠ من المنار)

يحارب كل علم غير العلم الديني التقليدي الذى ألفه ، حتى انه ليحارب من لا يعتد في دينه إلا بالكتاب والسنة ، وينسى ان العلوم الطبيعية والرياضية والهندسة وجر الاثقال والفلك والطب والكيمياء وطبقات الأرض وكل علم يفيد الاجتماع البشري هي علوم دينية ان لم تكن مباشرة فمن حيث النتيجة (١) وكم جرى تدريس هذه العلوم في الازهر والاموي والزيتونة والقرويين وقرطبة وبغداد وسمرقند وغيرها عند ما كان للاسلام دول كبار وأعاظم رجال. وكم نبغ في الاسلام من عظماء جمعوا بين الحكمة والشريعة ، ونظموا بين الحديث والرياضة ، وإن أكبر فيلسوف عربي اشتهر اسمه في أوربة هو القاضي ابن رشد وقد كان من أكابر الفقهاء

«١» اى من باب قول العلماء : ما لا يتم الواجب المطلق الا به فهو واجب .وقد بينا في تفسير (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ان آلات القتال البرية والبحرية والجوية واجبة بنص هذه الآية لانها من القوة المستطاعة للمسلمين كما هي مستطاعة لغيرهم ،فليس وجوبها بقاعدة مالايتم الواجب الا به فهو واجب بل بنص القرآن ودلالة المنطوق منه فراجع تفسيرها في ص ٦١ ج ١٠ تفسير

مدنية الاسلام

أما زعم من زعم أن الاسلام لم يتمكن من تأسيس مدنية خاصة والاستدلال على ذلك بحالته الحاضرة، فهو خرافة يموه بها بعض أعداء الاسلام من الخارج ، وبعض جاحديه من الداخل . أما القسم الاول فلاجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الاوربية ، وأما القسم الثاني فلاجل أن يزرعوا في العالم الاسلامي بذور الالحاد ، ونحن لا ننكر تأثير الدين في المدنية ولكننا لا نسلم بأنه يصح أن يكون لها ميزانا ،وذلك لانه كثيراً مايضعف تأثير الدين في الامم فتتفلت من قيوده وتفسد أخلاقها وتنهار أوضاعها ، فيكون فساد الاخلاق هو علة السقوط ، ولا يكون الدين هو المسؤول:،وكثيراً ماتطرأ عوامل خارجية غير منتظرة فتتغلب على ما أثلته الشرائع من حضارة وتزلزل أركانها ، وقد تهدمها من بوانيها ، ولا يكون القصور من الشريعة . فتأخر المسلمين في القرون الأخيرة لم يكن من الشريعة بل من الجهل بالشريعة ، أو من عدم اجراء احكامها كما ينبغي . ولما كانت الشريعة جارية على حقها كان الاسلام عظيما عزيزاً

ومدنية الاسلام قضية لا تقبل المماحكة إذ ليس من أمة في اوربة سواء الألمان أو الفرنسيس او الانكليز او الطليان الخ إلا وعندهم تآليف

لاتحصى في « مدنية الاسلام » فلو لم تكن للاسلام مدنية حقيقية سامية راقية مطبوعة بطابعه ، مبنية على كتابه وسنته ، ما كان علماء أوربة حتى الذين عرفوا منهم بالتحامل على الاسلام يكثرون من ذكر المدنية الاسلامية ومن سرد تواريخها ، ومن المقابلة بينها وبين غيرها من المدنيات ، ومن تبيين الخصائص التي انفردت هي بها .

فالمدنية الاسلامية هي من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام ، والتي تغص سجلاته الخالدة بآثارها الباهرة . وقد بلغت بغداد في دور المنصور والرشيد والمأمون من احتفال العمارة ، واستبحار الحضارة ، وتناهي الترف والثروة ، ما لم تبلغه مدينة قبلها ولا بعدها الى هذا العصر ، حتى كان أهلها يبلغون مليونين ونصف مليون من السكان . وكانت البصرة في الدرجة الثانية عنها ، وكان أهلها نحو نصف مليون .

وكانت دمشق والقاهرة وحلب وسمرقند واصفهان وحواضر أخرى كثيرة من بلاد الاسلام أمثلة تامة ، واقيسة بعيدة في استبحار العمران ، وتطاول البنيان ، ورفاهة السكان ، وانتشار العلم والعرفان ، وتأثل الفنون المتهدلة الافنان ،

وكانت القيروان وفاس وتلمسان ومراكش في المغرب أعظم وأعلى من ان يطاولها مطاول ، أو يناظرها مناظر ، أو ان يكاثرها مكاثر في

ممالك أوربة حتى هذه القرون الاخيرة .

و كانت قرطبة مدينة فذة في أوربة لا يدانيها مدان ، وكان عدد سكانها نحو مليون ونصف نسمة ، وكان فيها نحو سبعمائة جامع عدا المسجد الاعظم الذي لما زرته في هذا الصيف قال لي المهندس الذي كان معي من قبل الحكومة الاسبانيولية: إنه يسع بحسب مساحته خمسين الف مصل في الداخل و ٣٠ الف مصل في الصحن ، فجملة من يسعهم هذا المسجد العجيب ثمانون الفاً من المصلين .

ولما ذهبنا إلى آثار قصر الزهراء رأيناها آثار مدينة لا آثار قصر واحد ، وعلمنا أنها تمتد على مسافة تسعمائة متر طولا في ثمانمائة متر عرضاً ، والاسبانيول يقولون : مدينة الزهراء . وقل لي المهندسون الموكاون بالحفر على آثارها: إنهم يرجون الاتيان على كشفها كلها من الآن إلى خمسين سنة . وحسبك ان غرناطة التي كانت حاضرة مملكة صغيرة في آخر أمر المسلمين بالاندلس لم يكن في أوربة في القرن الخامس عشر المسيحي بلدة تضاهيها ولا تدانيها ، وكان فيها عندما سقطت في ايدي الاسبانيول نصف مليون نسمة . ولم يكن وقتئذ عاصمة من عواصم اوربة تحتوي نصف هذا العدد ، وحمراء غرناطة لا تزال يتيمة الدهر إلى اليوم هذه لمحة دالة من مآثر حضارة الاسلام وغرر أيامه ، وإلا فلو

استقصينا كل ما أثر المسلمون في الارض من رائع وبديع لم تسع ذلك الجلود الكثيرة ، المرصوفة طبقا فوق طبق

وكم حرر المؤرخون الاوربيون تحت عنوان « مدنية الاسلام » كتباً قيمة ومجاميع صور تأخذ بالابصار . وإن أشد مؤرخي الافرنجة تحاملا على الاسلام لا يتعدى ان يحاول التصغير من شأن مدنيته ، وان ينكر كونه اباعذرتها . فقصارى هذه الفئة ان ينكروا كون المسلمين قد ابتكروا علوما وسبقوا إلى نظريات صارت خاصة بهم ، وغايتهم ان يقولوا ان المسلمين لم يزيدوا على ان نقلوا واذاعوا وكانوا واسطة بين المشرق والمغرب. وهذا القول مردود عند المحققين الذين يعرفون للمسلمين علوما ابتكروها ، وحقائق كشفوها ، وآراء سبقوا اليها ، فضلا عما زادوا عليه وأكملوه ، ومانشروه ونقلوه ، ومن استرقَ شيئا وقد استرقه ، فقد استحقه .

وبعد فلم نعلم مدنية واحدة من مدنيات الارض إلا وهي رشح مدنيات سابقة ، وآثار آراء اشتركت بها سلائل البشرية ، ومجموع نتائج عقول مختلفة الاصول ، ومحصول ثمرات ألباب متباينة الاجناس

الرد على حساد المدنية الاسلامية المطابر

أينسى حساد الاسلام والمكابرون في عظمة فضله ، الزاعمون انه انما نقل وتعلم وقلد واقتدى وانه انما صلى وراء غيره: أن المدنية الشرقية يوم ظهر الاسلام كان أخنى عليها الذي أخنى على لبد ، وانه هو الذي جددها وأحيا آثارها ، وأقال عثارها ؟ وأنها بعد ان كانت قد امحت ولحقت بالغابرين ، أبرزها من اصدافها ، وجلاها من بعد ان كانت ملفوفة بغلافها ، ونشرها في الخافقين ، وبلَّجها كفلق الصبح لكل ذي عينين ، وأضفى عليها لباس الاسلام الخاص ، ودبجها بديباجة القرآن ، التي لم تفارقها في شرق ولا غرب ، ولا سهل ولا وعر ، حتى حمل ذلك كثيراً من علماء الافرنج ممن لم يعمه الهوى ، ولم يحد في التحقيق عن مهيع الهدى ، على ان اعترفوا بان مدنية الاسلام لم تكن نسخاً ولا نقلا وانما هي قد نبعت من القرآن ، وتفجرت من عقيدة التوحيد ؟

فأما ما ترجمته حضارة الاسلام من كتب ، وما أخذته عن غيرها من علوم ، وما أفادته في فتوحاتها من منازع جميلة ، وطرائق سديدة ، فلا يقدح ذلك في بكارتها الاسلامية ، ومسحتها العربية ، لان هذا

شأن الحضارات البشرية بأجمعها أن يأخذ بعضها عن بعض ويكمل بعضها بعضا ، فالعلم الحقيقي ينحصر في هذا الحديث الشريف « الحكمة ضالة المؤمن ينشدها ولو في الصين » (١) وهذه من أقدس قواعد الاسلام

وعلى كل حال لا يقدر مكابر أن يكابر ان الاسلام كان له دور عظيم في الدنيا سواء في الفتوحات الروحية أو العقلية أو المادية ، وان هذه الفتوحات قد اتسقت له في دور لا يزيد على ثمانين سنة ، مما أجمع الناس على انه لم يتسق لأمة قبله أصلا . وكان نابليون الاول لشدة دهشته من تاريخ الاسلام يقول في جزيرة سنتيهلانة : ان العرب فتحوا الدنيا في نصف قرن لا غيره

وتأمل أيها القاريء في ان قائل هذا القول هو بونابرت الذي لم تكن تملأ عينه الفتوحات مهما كانت عظيمة

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

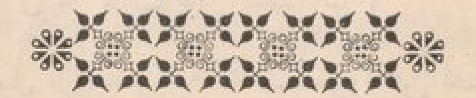
فهذا رجل عظيم جداً استعظم حادث العرب الذي لم يسبق نظيره

---

(١) هذا مضمون حديثين أحدهما « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، ورواه غيره بمعناه مع اختلاف في اللفظ . والثاني « اطلبوا العلم ولو بالصين » وذكره الكاتب في موضع آخر وهناك تذكر من خرجه

في التاريخ ، وقد بقي دور العرب هو الاول في وقته، ولبثوا وهم المسيطرون في الارض ، لا يضارعهم مضارع ، ولا يغالبهم مغالب ، مدة ثلاثة قرون او أربعة . ثم أخذوا بالانحطاط، وجعلت ظلالهم تتقلص عن البلدان التي كانوا غلبوا عليها شيئاً فشيئاً، وذلك بفتور الهمم ، ودبيب الفساد إلى الاخلاق ، ونبذ عزائم الدين ، واتباع شهوات الانفس ، وأشد ما ابتلوا به التنافس على الامارات والرئاسات ، ـ ولا سيما بين القيسية واليمانية ـ مما لولاه لدانت لهم القارة الاوربية باجمعها ، وكانت الآن عربية كما هو المغرب . فالمصائب التي حلت بالمسلمين إنما هي مما صنعته أيديهم ، ومما حادوا به عن النهج السوي الذي أوضحه لهم القرآن الذي لما كانوا عاملين بمحكم آيه علوا وظهروا وكانت لهم الدول والطوائل ، فلما ضعف عملهم به وصاروا يقرءونه بدون عمل، وانقادوا إلى اهواء أنفسهم من دونه ، ذهبت ريحهم ، وولى السلطان الاكبر الذي كان لهم، وانتقصت الاعداء أطراف بلادهم، ثم قصدوا إلى أوساطها

ولنضرب الآن بعض أمثلة عن الامم الاخرى لاجل المقابلة بيننا وبينهم إذ كانت بضدها تتبين الاشياء



اليونان والرومان قبل النصرانية وبعدها

كان اليونانيون قبل النصرانية أرقى أمم الارض أو من أرقى أمم الارض ، وكانوا واضعي أسس الفلسفة ، وحاملي ألوية الاداب والمعارف ، ونبغ منهم من لا يزالون مصابيح البشرية في العلم والفلسفة الى يوم الناس هذا .

وكان الاسكندر المكدوني أعظم فاتح عرفه التاريخ او من أعظم الفاتحين الذين عرفهم التاريخ ، حاملا للادب اليوناني ، ناشراً لثقافة يونان بين الامم التي غلب عليها . وما كانت دولة البطالسة التي لمعت في الاسكندرية بعلومها وفلسفتها إلا من بقايا فتوح الاسكندر . ثم لم تزل هذه الحالة إلى أن تنصرت يونان بعد ظهور الدين المسيحي بقليل ، فمذ دانت هذه الامة بالدين الجديد بدأت بالتردي والانحطاط ، وفقد مزاياها القديمة ، ولم تزل تنحط قرنا عن قرن ، وتتدهور بطنا عن بطن ، إلى أن صارت بلاد اليونان ولاية من جملة ولايات السلطنة العثمانية . ولم تعد إلى شيء من النهوض والرقي إلا في القرن الماضي ، وأين هي مع ذلك الآن مما كانت قبل النصرانية ؟

أفيجب ان نقول ان النصرانية كانت المسؤولة عن انحطاط يونان هذا ؟

ان القائلين بان الاسلام قد كان سبب انحطاط الامم الدائنة به لامفر لهم من القول بأن النصرانية قد أدت أيضا الى انحطاط يونان التي كانت من قبلها عنوان الرقي

ثم كانت رومية في عصرها الدولة العظمى التي لايذكر معهادولة، ولا يؤبه في جانب صولتها لصولة، ولم تزل هكذا هي المسيطرة على المعمور الى أن تنصرت لعهد قسطنطين. فمنذ ذلك العهد بدأت بالانحطاط مادة ومعنى، الى أن انقرضت اولا من الغرب، وثانيا من الشرق. ولم تسترجع رومية بعد انقراض الدولة الرومانية شيئا من مكانتها الاولى، وبقيت على ذلك مدة ١٥ قرنا حتى استأنفت شيئا من مجدها الغابر، وما هي إلى هذه الساعة ببالغة ذلك الشأو الذي بلغته أيام الوثنية

أفنجعل تنصر الرومان هو العامل في انحطاط رومة وتدحرجها عن قمة تلك العظمة الشاهقة؟ لقد قال بهذا علماء كثيرون كما قال آخرون مثل هذه المقالة في الاسلام، وكلا الفريقين جائر حائد عن الصواب

فان لسقوط الرومان بعد فشو الدين المسيحي فيهم ولسقوط اليونان من قبلهم بعد ان تقبلوا دعوة بولس إلى النصرانية اسبابا وعوامل كثيرة من فساد الاخلاق، وانحطاط الهمم، وانتشار الخنى والخلاعة، وشيوع الالحادو الاباحة، ومن هرم الدول الذي يتكلم عنه ابن خلدون،

وغير ذلك من أسباب السقوط الداخلية منضمة اليها غارات البرابرة من الخارج ، فكانت ثمة أسباب قاسرة مؤدية إلى السقوط الذي كان لا بد منه ، فلو فرضنا ان النصرانية لم تكن جاءت وقتئذ لم يكن الرومان ولا اليونان نجوا من عواقب تلك الحوادث ولا تخطتهم نتائج تلك الاسباب

فدعوى بعض المؤرخين الاوربيين ان تغلب المسيحية على اليونان والرومان اخنى على عظمتها ، وذهب بمدنيتها ، ليس فيه من الصحيح الا كون الاوضاع الجديدة تذهب بالاوضاع القديمة ، سنة الله في خلقه ، وانه في هيعة هذا التحول لا بد من اضطراب الاحوال وانحلال القواعد واستحكام الفوضى ، والا فلا أحد يقدر أن يقول ان الوثنية أصلح للعمران من النصرانية (١)

---

(١) علماء المسلمين يعتقدون ان النصرانية على ما طرأ عليها من الوثنية بالتثليث الوثني القديم أصلح لأنفس البشر من الوثنية الخالصة ولكنها ليست اصلح ولا اقبل للعمران المدني الذي تتنافس فيه اوربة وغيرها لأنها ديانة مبنية على المبالغة في الزهد والخضوع لكل حكم دنيوي ، والعمران لا يتم ولا يسمو الا بالسيادة والملك والغنى ، ومن قواعد الانجيل ان الجمل إذا دخل في ثقب الابرة فالغني لا يدخل ملكوت السموات ، ونعتقد أيضا ان جميع ما جاء به المسيح عليه السلام من الدين فهو حق وكان =

وهذه الدعوى كانت تكون أشبه بدعوى أعـداء الاسلام الذين يزعمون ان الشرق كان راتعا في بحابح العمران، فجاء الاسلام وطمس المدنيات الشرقيـة القديمة ! لولا أن الحقيقة هي كما قدمنا ان المدنيات الشرقية كانت كلها قد انقرضت او انحطت قبل ظهور الاسلام بكثير، وان الاسلام وحده لا غيره هو الذي جدد مدنية الشرق الدارسة، واستأنف صولته الذاهبة الطامسة، وبعث تلك الحواضر العظمى الزاخرة بالبشر كبغداد والبصرة وسمرقند وبخارى ودمشق والقاهرة والقيروان وقرطبة وهلم جرا، ولئن كانت قد بقيت للشرق آثار مدنيات قديمة فان الاسلام هو الذي وطد بوانيها، وطرز حواشيها، وحمل السيف بيد

= البشر في اشد الحاجة الى ما فيه من المبالغة في الزهد والتواضع لمقاومة ما كان عليه اليهود وحكامهم الروم (الرومان) من الطمع والكبرياء والعتو وان هـذا كان تمهيدا للاسلام الدين الوسط المعتدل الجامع بين مصالح الدنيا والاخرة فما ذكرناه من اعتقادنا يتضمن اعترافنا بحقيقة دين المسيح في نفسه وبكونه من عند الله تعالى مع التعارض بينه وبين ديننا الناسخ له ومن وظيفتي ان ابين هذا في حاشية مقال كتب للمنار باقتراح من أحد تلاميذ المنار على أمير البيان

والقلم بيد إلى أبعد ما تصوره العقل من حدود الاقطار التي لم يسبق لشرقي أن يطأها بقدمه

فاذا كان الافرنج الصليبيون من الغرب ، وكان المغول اولئك الجراد المنتشر من الشرق ، قد تبّروا ماعلا الاسلام في تلك الممالك ، ونسفوا عمران هاتيك الحواضر ، وكانت منافسات ملوك الاسلام الداخلية واتباعهم للشهوات ، وامعانهم في الضلالات ، ومحيدهم عن جادة القرآن القويمة ، وفقدهم ما يزرعه في الصدور من الاخلاق العظيمة ، قد قضت في الداخل، على ماعجز عن تعفيته العدو من الخارج ، فليس الذنب في هذا التقلص ذنب الاسلام ، ولا التبعة في هذا الانقلاب عائدة على القرآن ، وانما الذنب هو ذنب الهمج من الافرنج ، وجناية ذلك الجراد الزحاف من المغول ، وانما هي تبعة المسلمين الذين رغبوا عن أوامر كتابهم واشتروا بآياته ثمنا قليلا، إلا النادر منهم

وأيضا فقد تنصرت الامم الاوربية في القرن الثالث والرابع والخامس والسادس من ميلاد المسيح ، وبقيت امم في شرقي اوربة إلى القرن العاشر حتى تنصرت. ولم تنهض اوربة نهضتها الحالية التي مكنتها تدريجا من هذه السيادة العظمى بقوة العلم والفن إلا من نحو اربعمائة سنة ، اي من بعد أن دانت بالانجيل بالف سنة. ومنها بعد أن دانت به بسبعمائة

سنة ومنها بثمانمائة سنة الخ وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى . ولا نقول ان الاوربيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض ، بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعبا منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ، وبرغم انف لويس برتران واضرابه. ومن الكتب المخرجة حديثا الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » لمؤلف افرنسي متخصص في التواريخ الشرقية اسمه «غروسه» فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها ولن يظهر، وهي : ان العرب في القرون الوسطى كانوا أساتيذ الاوربيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه

سبب تأخر أوربة الماضي ونهضتها الحاضرة

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الاوربيون في القرون الوسطى مدة الف سنة ناشئا عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه بالنواجذ ؟

نعم ، ان الامم البروتستانية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية لا النصرانية من حيث هي . وتزعم ان نهضة أوربة لم تبدأ إلا بخروج (لوثير ، و كلفين) على الكنيسة الرومانية .

واما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحدة فلا يفرقون كثيراً بين الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عائقة عن العلم والرقي ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عندما ذكر لديه لوثير ، وكلفين ، قال : « كلاهما لا يصلح ان يكون حذاء لمحمد » يريدان ان محمداً (ص) بلغ من الاصلاح مالم يبلغا أدناه ، مع اعتقاد الكثيرين ان مذهبهما كان فجر أنوار اوربة (١)

والحق الذي لا نرتاب فيه ان النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برابرة اوربة

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون . ومنهم من هم على مذهب بوذا . ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني

---

(١) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام واذكياء مريديه كسعد باشا زغلول يعتقدونه ولكن بمعنى سلبي وهو ان هذا المذهب اضعف حجر الكنيسة على العقول البشرية وتقييدها بتعاليمها وفهمها للدين ورأيها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سرى الى اوربة عقب الحروب الصليبية بمعاشرة المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وعدم سيطرة احد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية

كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو الفي سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الامم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم ، وصاروا إلى ما صاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين

فلا كانت الوثنية إذاً سبب تأخرهم الماضي ، ولا هي سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تفاوت اليابان والروسية وتحاربتا فتغلبت اليابان على الروسية. مع ان اليابانيين في العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لاشك فيه ان اليابانيين ارقى من الروس ، والحال ان الروسية عريقة في النصرانية واليابان عريقة في الوثنية

فليترك اذاً بعض الناس جعل الاديان هي المعيار للتأخر والتقدم(١)

أفنقول من أجل هذا المثال: ان الانجيل هو الذي أخر الروسية عن درجة اليابان ، وان عبادة الالهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضبع اليابان حتى سبقت الروسية ؟

---

(١) هذا صحيح في جملة الاديان الا الاسلام فقرآنه وتاريخه يثبتان انه هو سبب تقدم أهله حين اهتدوا به وسبب تأخرهم حين أعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب في رسالته هذه فأظلم الظلم أن يجعل سبب تأخرهم

ان لهذه الحوادث أسبابا وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى.
فاذا تراكمت هذه العوامل في خير أوشر تغلبت على تأثير الاديان والعقائد، وأصبحت فضائل أقوم الاديان عاجزة بازاء شرها، كما أصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم « وجود حصان مقدس يركبه الاله فلان » لم يقف حائلا دون تقدمهم المبني على ما ركب في فطرتهم من الحماسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس في المجد والقوة

وعندنا أمثلة كثيرة لا تكاد تحصى في هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الاوربيين على الاسلام ، وزعمهم انه هو عنوان التأخر ، وانه رمز الجمود ، وتحدثهم بذلك في الاندية والمجامع ، ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجرائد ، وقولهم أن الشجرة تعرف من ثمارها، وان حالة العالم الاسلامي الحاضرة هي نتيجة جمود الاسلام ، وتحجر القرآن ! (كبرت كلمة تخرج من أفواههم ان يقولون إلا كذبا)

وحسبك أن المسيو « سان القيم الافرنسي السامي » في المغرب ينشر في العدد الاخير من « مجلة الاحياء » الافرنسية مقالة يتكلم

فيها عن يقظة المغرب بعد « ليل الاسلام » ! هكذا تعبيره

فان كان تأخر إحدى الممالك الاسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه « ليل الاسلام » فكم كان ليل النصرانية طويلا عند مابقيت أوربة المسيحية زهاء ألف سنة وهي في حالة الهمجية او ما يقرب من الهمجية

لماذا أيها الناس تدخلون الاديان فيماهي براءة منه؟ ولماذا تقحمونها في موضوع يكذبكم فيه التاريخ بأماثيله الجمة

ان ادخال الاديان في هذا المعترك وجعلها هي معيار الترقي والتردي ليس من النصفة في شيء.

حث القرآن على العلم

باعث للمسلمين على سبق الامم في الرقي

العالم الاسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالامم العزيزة الغالبة اذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه . ولا يزيدهم الاسلام إلا بصيرة فيه وعزما . ولن يجدوا لانفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) والذي فيه : (وزاده بسطة في العلم) والذي فيه : (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) والذي فيه : (شهد الله انه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) والذي فيه : (بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم) والذي فيه : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتو العلم درجات) والذي فيه : (ويعلمهم الكتاب والحكمة) وفيه : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) وفيه : (فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) وغير ذلك من الآيات الكريمة ، وفيه ماهو خاص بالامة العربية : (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾

وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سيكار) هذا الذي بالمغرب الذي الف في الطعن على الاسلام، والذي يكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وايجابه للتعليم. وقد أتى سيكار من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق أن يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس. وكل من تأمل في مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يحث على السير في الارض والنظر والتفكر يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على اطلاقه متناولا كل شيء، وأن المراد بالحكمة هى الحكمة العلمية المعروفة عند الناس، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة. ويعزز ذلك الحديث النبوي الشهير: «اطلبوا العلم ولو في الصين»[١]. فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم سيكار ما كان النبي ﷺ يحث على طلبه ولو في الصين اذ أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعاً للعلم الديني، كما لا يخفي

---

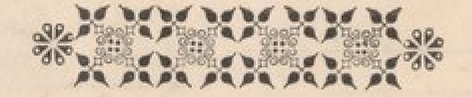
(١) تتمته «فان طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه العقيلى وابن عدي والبيهقى وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الاخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوي بعضها بعضا

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية مايقتضي أن المراد بالعلم علم الكون لانه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى (٣٩ : ٢٧ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها . ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء) أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الالوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام

وقد كنا ظننا هذا الرجل على شيء من حب الحقيقة ، فلما أنكر المدنية الاسلامية رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن ، وعظمنا من قدر المدنية المسيحية ، ووقرنا منها ورددنا على القائلين من الاوربيين بأن النصرانية كانت وقفاً لسير المدنية وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك . فكان من سيكار هذا أن نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام ما لو جئنا نرده لم نستغن عن إيراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي مما نأبى أن نتعرض له لانه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن الذوق أن نغيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل إسمه سيكار او غيره من هذه الطبقة

من الدعاة والمبشرين . هذا زائداً إلى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة التي من قبيل قوله : ان العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق وإنما هو العلم الدينى فقط لأن القرآن لا يهمه شي من علوم الدنيا ! فمكابر كهذا لا يستحق الجواب

ثم علمنا أن المسيو سيكار هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بادارة الامور الاسلامية وانه هو والمسيو لويس برينو مدير التعليم الاسلامي هناك — والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات — والقومندان مارتي مستشار العدلية الاسلامية — ورهطا آخرين هم الذين لعبو الدور الاهم في قضية العمل لتنصير البربر . وما كان استخدام فرنسة لهم في مهمات كلها عائدة للاسلام إلا على نية نقض كل مايقدرون عليه من بناء الاسلام بالمغرب . وستذوق فرنسة ولو بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامي الذي تعهدت في معاهداتها باحترامه .



كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية

يقول بعض الناس (١) ما لنا وللرجوع الى القرآن في ابتعاث همم المسلمين إلى التعليم فان النهضة لا ينبغي أن تكون دينية بل وطنية قومية كما هي نهضة أهل أوربة، ونجيبهم إن المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم دينية (٢) على شرط أن نتوطن بها النفوس على الحب في حلبة العلم. ولكننا نخشى إن جردناها من دعوة القرآن، أن تفضي بنا إلى الالحاد والاباحة، وعبادة الابدان، واتباع الشهوات، مما ضرره يفوت نفعه. فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً إلى جنب مع تربية دينية، وهل يظن الناس عندنا في المشرق أن نهضة من نهضات أوربة جرت بدون تربية دينية؟

أفلم يقل رئيس نظار ألمانية في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات: ان ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي. وهذا هو اعلان ألمانية التي هي المثل الاعلى في العلم والصناعة واتقان الآلات والادوات، لا ينازع في ذلك أحد، ولا أعداؤها

١» اي من ملاحدة المسلمين الجاهلين أو المتجاهلين لحال أوربة في عصبيتها الدينية «٢» ولكن المسؤول عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون

أفتوجد جامعة في ألمانية او انكلترة او غيرهما من هذه الممالك الراقية بدون أن يكون فيها علم اللاهوت المسيحي ؟ (١)

ثم انهم عندما يقولون في اوربة « نهضة وطنية » او « نهضة قومية » او جامعة وطنية او قومية ، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر . ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد . وانما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وامة بما فيهما من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموع ذلك معاً ، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله

خلاصة الجواب

ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم

إن الواجب على المسلمين لينهضوا ويتقدموا ويعرجوا في مصاعد المجد ويترقوا كما ترقى غيرهم من الامم هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة ؛ وهو ما يسمونه اليوم « بالتضحية »

فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الامم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية ،

« ١ » وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة والتربية المدرسية الابتدائية وجلها دينية

وربما كان الشيخ محمد بسيوني عمران أوغيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن أني سأجيبه ان مفتاح الرقي هو قراءة نظريات «اينشتين» في النسبية مثلا أو درس أشعة « رونتجين » أو ميكروبات «باستور» أوالتعويل في اللاسلكي على التموجات الصغيرة دون الكبيرة ، أو درس اختراعات « اديسون » وان سبب حادثة المنطاد الانكليزي الذي سقط أخيرا واحترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وانما نفخ بالهيدروجين ، والحال ان الهيدروجين - وان كان أخف في الوزن - قابل للاشتعال ، وانه لاخوف من اشتعال الهليوم وان كان أثقل شيئا من الهيدروجين - وما أشبه ذلك

والحقيقة أن هذه الامور انما هي فروع لا أصول ، وانها نتائج لا مقدمات ، وإن « التضحية » أو الجهاد بالمال وبالنفس هو العلم الاعلى . فاذا تعلمت الامة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم ، ودنت منها جميع القطوف

وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالما بعملها حتى يكون عالما بالاحتياج اليها . قال لي مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الافغاني:

« ان الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء ، فاذا مرض ابنه اختار له أحذق الاطباء ، وعلم ان هناك شيئا نافعا هو العلم لا يعلم هو

شيئاً منه ، ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه انه ضروري »

ولم يكن محمد علي عالما وربما كان أميا ، ولكنه بعث مصر من العدم إلى الوجود في زمن قصير ، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم الاعلى الذي هو الارادة ،، والذي هو الذي يبعث صاحبه إلى التفتيش عن العلوم وحمل الامة عليها

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا وجردوا العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم أن يبلغوا مبالغ الاوربيين والامريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء، وان يبقوا على اسلامهم كما بقي اولئك على أديانهم ، بل هم اولى بذلك واحرى . فان اولئك رجال ونحن رجال ، وانما الذي ينقصنا الاعمال ، وانما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال . فلننفض غبار اليأس ولنقدم إلى الامام ، ولنعلم اننا بالغو كل أمنية بالعمل والدأب والاقدام ، وتحقيق شروط الايمان التي في القرآن (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)

لوزان ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠ — شكيب أرسلان

تم الجواب



فهرس

لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟

صفحة

صفحة

تم الفهرس





